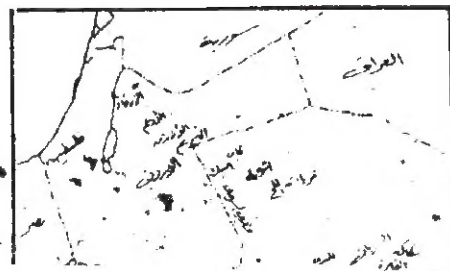


سلسلة الاسفار العربيّة
٤

الرحلة التّوخيّة
رحلة عز الدين التّوخي

من الزرقاء الى القريبات



الرحلة التنوذية

جمع وتحقق

د. يحيى عبدالرؤوف جبر

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الاولى ١٩٨٥

الرحلة التنوخية

رحلة عز الدين آل علم الدين التنوخي هاربا من
بطش الاتحاديين الطورانيين لاجئا الى البادية التي طالما
كانت رداء للعرب وحصناتهم، من الزرقاء الأردنية الى
منطقة القرىات السعودية، وذلك ابان الحرب العالمية
الأولى.

الاهداء

الى كل من جاب البوادي العربية حبا في العرب
ولغتهم، ابتداء من رواة اللغة الأوائل، مروراً بعز الدين
التنوخى وغيرهم. وليس الى الذين كان تطوافهم تجسسا
وتزويرا للحقائق، وخدمة للاستعمار بأنواعه.

تقديم

الحمد لله الذي علم بالقلم، علم الانسان ما لم يعلم، والصلاة والسلام على رسوله الأكرم محمد بن عبد الله عليه صلاة الله وسلامه وبعد.

فهذا كتاب جمعناه نصوصاً منشورة في أعداد مجلة لم تعد تصدر منذ حين، فقد كانت البداية عندما كنت أعد حصة اذاعية، فوقفت في مجلة المقتطف على نص من رحلة التنوخي تحت عنوان «في بادية الشام» وقد ذيل بعبارة «للبحث صلة»، فنقبت في أعداد المجلة السابقة واللاحقة عن صلته، فاذا هي صلات، فسارعت الى تصويرها جميعاً دون أن أقرأها قراءة تدقيق.

ثم عدت الى هذه النصوص أثناء البحث عن مزيد من المعلومات عن البلدان الأردنية والفلسطينية كمادة لكتاب «معجم البلدان الأردنية والفلسطينية» الذي أرجوان يكون في متناول القراء والدارسين قبل ربيع هذا العام، فوجدت أن النصوص جديرة بالنشر، ليس إكراماً لمؤلفها، أو تقديراً لجهوده في مجال خدمة العربية وتراثها وحسب، ولكن لذاتها أيضاً، حيث تقدم تعريفاً بكثير من المسائل والمواقع في الجنوب الشرقي من الأردن، والشمال السعودي.

وكانت أولى الخطوات عقب الجمع القراءة المتأنية لتحقيق بعض المعلومات، وتصويب بعض الأخطاء المطبعية، وتحديد ما هو بحاجة الى تنوير وتوضيح، وأورده الى مصادره مع توثيقه بذكر موقعه منها.

وقد قدمت للنصوص بتعريف بالرحلة وأهدافها والأسباب التي حدثت بالرجل للقيام بها، وبالنهج الذي تفقاه التنوخي في سرد الأحداث، كما بوبت مادتها على نحو يسهل عملية الاستفادة منها، ذلك اضافة الى ما جاءت عليه النصوص من ترتيب وتقسيم. كما عرفت بالموضوعات التي طرقها مما له علاقة بالبادية والبدو، بنفس المؤرخ والعارف بالأبعاد الحضارية لمجتمع البادية وتراث العرب.

وقد ذيلنا معظم الصفحات بهوامش أوضحنا فيها الغامض والمشتبه في المتن، وربما وردت عبارة «هامش من الأصل» في بعض المواقع، وهي اشارة الى الحواشي التي كان التنوخي قد ذيل بها مادته الأصلية.

وقد أشرنا لدى ابتداء كل نص من نصوص الرحلة الى العدد الذي نشر فيه من مجلة المقتطف، وشهره وسنته، والصفحات التي تضمنته، ذلك ليسهل الرجوع اليه عند الرغبة في التحقق.

كما ذيلت الكتاب بثلاثة فهارس: واحد للبلدان والمواضع، والثاني للأعلام من القبائل والأقوام والأفراد الذين ورد ذكرهم فيه، والثالث ذكرت فيه الألفاظ الاجتماعية والحضارية، ثم جئت ببيت بمحتويات الكتاب.

وأخيرا نأمل أن نكون قد وفقنا في اخراج هذه النصوص وتحقيقها والتعليق عليها، لينتفع بها القراء والباحثون، وأن نكون قد نهضنا بحق عز الدين التنوخي المحقق والعالم، رحمه الله، ووفقنا لما يحبه ويرضاه.. انه سميع عليم.

عمان في ١٧ ربيع الثاني سنة ١٤٠٥ هـ

الموافق ١٠ كانون الثاني سنة ١٩٨٥ م

عزالدين التنوخي في سطور

هو عز الدين آل علم الدين التنوخي الشهير بشيخ السروجية. ولد - رحمه الله - سنة ١٨٨٩م، بدمشق، وتوفي فيها صباح يوم الرابع والعشرين من حزيران (يونيو) سنة ١٩٦٦م، بعد حياة حافلة بالانتاج والعطاء.

وكان قد التحق بالمدرسة الابتدائية السباهية بدمشق، حيث ختم القرآن الكريم، ودرس مبادئ العلوم واللغات العربية والتركية والفارسية والفرنسية، وذلك في المدرسة الرشيدية - الابتدائية والعالية، ثم انتقل بعد نيل الشهادة الرسمية التركية الى مدرسة الفرير الفرنسية، ثم ذهب الى مصر وطلب العلم في الجامع الأزهر، ثم ذهب الى فرنسا مع البعثة العلمية الأولى الدمشقية (١).

وقد مكث في فرنسا ثلاث سنوات في مدرسة زراعية وبعد عودته عين ببيروت معلماً للزراعة في مركزها الزراعي، ولما أعلنت الحرب العالمية الأولى دعي لخدمة العلم، وعندما شعربسوء نية المتنفذين الأتراك، وعزمهم على الغدربشباب العرب والتخلص منهم، فر من الجيش التركي بحلب (الشهاب)، والتحق بالثورة العربية الكبرى التي قادها الشريف حسين، وما رحلته هذه التي نقدمها للقاريء العربي.. وللدارس، الا ترجمة لما لاقاه في طريقه من الزرقاء الى القرى، حيث كان في طريقه من الزرقاء فكة المكرمة، ثم عاد الى دمشق بعد أن دخلها الجيش العربي بقيادة فيصل بن الحسين.

وقد تقلب عز الدين التنوخي في كثير من المناصب، فمن معلم للزراعة ببيروت، الى جندي أو ضابط بالجيش التركي، الى وزير للزراعة في الحكومة الأولى للثورة العربية الكبرى. كما كان عضواً في مجلس المعارف الذي أفته وزارة المعارف بدمشق، وقد تحول هذا المجلس الى المجمع العلمي العربي، وبعد العدوان الفرنسي واحتلال دمشق، هاجر الى العراق، وعين أستاذاً للأدب العربي في دار المعلمين الأولى، ثم دار المعلمين العالية ببغداد. ثم عاد الى دمشق فعين أميناً لسر المجمع العلمي العربي وأشرف على إصدار مجلة المجمع زمناً، ثم عين مدرساً للأدب العربي في بعض المدارس الثانوية، ففتشاً للغة العربية، فديراً

١ - جل هذه الترجمة هو ما نشرته مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق العدد ٤١ سنة ١٩٦٦م ص ٥٣٨ - ٥٤١ في تأبينه.

لمعارف محافظة السويداء، فأستاذًا في كلية الآداب بجامعة دمشق، فنائبًا لرئيس مجمع اللغة العربية، واستمر في هذا المنصب إلى أن توفي — رحمه الله. وعز الدين التنوخي من الأوائل الذين أسسوا هذا المجمع، وقد عمل جاهدا في رفع شأنه ووفرة انتاجه. وقد كان رحمه الله حجة في اللغة العربية وقواعدها وآدابها، يرجع إليه في حل معضلاتها، ويستفتى عن غوامضها، لم يرض بعلمه على مستفسر أو مستفيد، وكان معلما حثيثا وجد، في المدرسة، أو في داره، أو مقر عمله. وكان مسلكه في حياته مسلك السلف الضالعين، يعمل مخلصا لربه وأمته، زاهدا بالشهرة، متجنبا آفاتهما، وقد انشأ على مقاعد التدريس جيلا عاملا يشيد أبدا بفضله، ويرغم بذكره العاطر.

مؤلفاته

- ١ — الفتح المبين في شرح عينية ابن سينا الرئيس.
- ٢ — دروس في صناعة الانشاء.
- ٣ — مبادئ الفيزياء (جزآن).
- ٤ — قلب الطفل (جزآن).
- ٥ — تحقيق كتاب المنتقى من اخبار الأصمعي، للإمام الربيعي.
- ٦ — تحقيق تكملة اصلاح ما تغلط به العامة.
- ٧ — تحقيق بحر العوام في ما اصاب به العوام.
- ٨ — شرح (الايضاح) للقرطبي.
- ٩ — احياء العروض.
- ١٠ — تحقيق كتاب الابدال لأبي الطيب النغوي (جزآن).
- ١١ — تحقيق كتاب المشي. لأبي الطيب النغوي.
- ١٢ — تحقيق كتاب الاتباع لأبي الطيب النغوي.
- ١٣ — تحقيق كتاب (مقدمة في النحو) خلف الأحمر.
- ١٤ — مشاركة في وضع المعجم العسكري بقسميه الفرنسي — العربي، والانجليزي العربي.
- ١٥ — الرحلة التنوخية (في بادية الشام) وهو الكتاب الذي بين يديك.
- ١٦ — إلى جانب عدد كبير من المقالات والدراسات التي نشرها في المجلات المختلفة، وفي مقدمتها مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، رحمه الله، وجزاه عنا وعن العربية وتراثها جزاء حسنا.

هذه الرحلة

حدثت هذه الرحلة في الفترة الواقعة ما بين أواخر شوال سنة ١٣٣٢ هـ (١٩١٤ م) وأوائل سنة ١٣٣٤ هـ (١٩١٦ م)، ويبدو أنها دونت أثناء ذلك، ثم نشرت اعتبارا من مايو أيار سنة ١٩١٧ م، ذلك بدليل قوله عن مؤلفات ابن تيمية أنه كتب بأسمائها جريدة «ضاعت بضياح رحلتي المطولة».

وكانت نقطة الانطلاق من حلب الى جبل الشيخ ثم الى بلدة الزرقاء الأردنية، ومنها توجه مع صاحبه جلال الدين البخاري شرقا الى الهزم، فالقرىات دومة الجندل والقارة، والطوير وسكاكة، مروراً بالأزرق والأدعم وأويسط وميقوع وغيرها من المواضع. ويبدو أنها انتهت الى البصرة، ولكن الرحلة مبتورة كما يلاحظ، ذلك أن آخر الحلقات التي عثرنا عليها ذيلت بعبارة «للرحلة صلة» ولم نجد تلك الصلة.

وقد دفعه الى القيام بهذه الرحلة عاملان، أحدهما يذكره صراحة، وهو الهرب من الجبروت الطوراني الذي كان يلاحقه هو وغيره من أحرار العرب للفتك بهم. والثاني، وهو ما تبرزه طريقة سرده للأحداث التي مرت به، وهو الدعوة للتمرد والثورة على الأتراك، ويمكن استيضاح ذلك في معرض حديثه عن الدين في البادية، كقوله عن العرب أجداد أصدقائه البدو: «وكيف قلب لهم اليوم بتحكم الأتراك مجن الدهر، وعضتهم أنياب العيلة والفقر.. وهلم جرا من العبارات التي كان يبدو عليهم التأثر بها، والتحسر، وتثير من جوانحهم كوامن الغضب على القوم الظالمين».

ولم يكتف عز الدين التنوخي بسرد الوقائع والأحداث، ولكنه يتحين الفرص ليعرض شيئا من معارفه المتنوعة، كيف لا وهو الأستاذ اللغوي المحقق المشهور، ومن قبيل ذلك التعريف ببعض الأعراف والتقاليد البدوية كالتبدي (التشريق) والبوق، والتضامن البدوي والنخوة العربية، وغير ذلك من الأمور.

كما أنه عرف بالقبائل التي مر بها أو نزل ضيفا بساحة شيوخها أو غيرهم من أفرادها، ويقدم معلومات مستقاة من رجالها أو من المصادر المختلفة، توضح انتماءها وعددها ومذهبها ونحو ذلك مما له ارتباط بكل قبيلة

و يوافق عز الدين التنوخي في آرائه في البدورأي ابن خلدون، ونعتقد أن كليهما جانرا في حكمه، فاذا كان البدو آفة الحضارة المادية فإن ذلك يستدعي أن يعاد النظر في مدلول كلمتي «آفة» و«حضارة» ومن هو الذي يحدد هذا المدلول؟ وهل غاية الانسان في هذا الكون ان «يتحضر» ماديا وحسب؟ فان كان الأمر كذلك فما الذي يمنع البدو من الاستقرار؟ وما الذي حدا بالقطامي التغلبي الى القول:

فمن تكن الحضارة أعجبتهم فأني رجسأل بادية ترانا
وما انذني حدا بميسون بنت بحدل الكلبية لقول أبياتها المشهورة، وهي زوج الملك الأموي معاوية، في قصوره وجنانه:

لبيت تخسفق الأرياح فيه أحب الي من قصر منسيف
وكلب ينبج الطراق دوني أحب الي من نقر الدفوف
ولبس عباءة وتقر عيني أحب الي من لبس الشفوف

وما الذي حدا بالشاعر البدوي المعاصر الى القول:
بارك الله في فلاح تبيدوى ولا ببارك في بدوي تفلح

وجدير بالذكر أن هذا الكتاب لا يقدم نصا في أدب الرحلات وحسب، ولكنه يؤرخ لفترة وجيزة ومكان محدود، فترة شهدت قيام الحرب العالمية الأولى ومشاركة تركية لألمانية في هذه الحرب، وشهدت الارهاصات والمقدمات الكبيرة لقياء الثورة العربية الكبرى التي فجرها الشريف حسين، والتي كان من أبرز أسبابها الاضطهاد الطوراني لأحرار العرب من أمثال عز الدين التنوخي وأصحابه الذين ورد ذكرهم في هذا الكتاب.

كما شهدت مزيدا من الصراع، ولا سيما في شمال جزيرة العرب، حين أخذت الدولة السعودية الفتية تبسط نفوذها على تلك المنطقة مصطدمة مع آل الرشيد، الذين سرعان ما وضع السعوديون حدا لأمارتهم عقب موقعة «روضة مهنا».

ونحدثنا عز الدين التنوخي في رحلته عن ضعف الأثر الديني في نفوس أفراد بعض القبائل التي أقام فيها عند تنقله في منطقة القرى، ولكنه يشير في الوقت نفسه الى أثر دعوة الإصلاح التي نهض بها الشيخ محمد بن عبد الوهاب بدعم من آل سعود - في تهذيب سلوكهم وتحريك الوانع الديني السمج في نفوسهم، هم وغيرهم من عرب الجزيرة وسواها.

وقد اعتمد التنوخي في معلوماته عن بعض البلدان والمواقع على معجمي ياقوت والبكري وغيرهما من مصادر اللغة والأدب، ومن الملاحظ أيضا أنه كان يحيل الى مواضع محددة بالاسم والرقم عند الاقتباس من بعض المصادر، وهذا دليل أمانته العلمية وتوثيقه. وبعده، فنحن بصدد نص في الحضارة يقدمه رجل مزج فيه بين ما خبرت به الكتب وبين ما ثقفه بالتجربة والمشاهدة. رجل تسعى وعين تبصر، وأذن تسمع، وعقل يدبج. وقم يرقم.

وقد كان هذا النص مشتتا في عدد من الكتب لا يصل اليه أحد الا احتمالا. ولا يستفاد منه الا لماما، فرأينا أن نقوم بجمعه وتحقيقه ونشره. ليكون في متناول القاريء العربي. باحشا كان أو مثقفا، ولننقي بذلك حزمة من الضوء على تلك الفترة القصيرة، وتلك المنطقة من بادية الشام، في الشمال السعودي. والجنوب الشرقي الأردني وهي منطقة صغيرة. ولكنها ذات تاريخ عريق تشهد به آثارها وأخبارها.

في بادية الشام *

هالتني وأنا في الشهباء (١) من الجبروت الجنكيزي^(٢) هُوَ أوجست منها في نفسي خيفة، واستشعرت من شرورها المستطيرة في العرب خشية، ولما أيقنت بأن حكومة الترك الطورانية قد عزمت عزما شديدا أن تقضي على الروح القومية العربية قضاء مبرما في طامة هذه الحرب الكبرى، وذلك بالقضاء على أعيان العرب وفتيان قحطان، وعلمت بعد ذلك أنهم أمروا زبانياتهم بالقبض عني، فاستجرت من المعاطب بالسباسب ومن العوادي بالبوادي، ولذت من عقاب العجزة الأشرار باجتياز عقاب المفاوز والأوعار. وما زلت لابسا قبعة الاخفاء متواريا عن العيون والرقباء، يوما بجبل الشيخ او جبل الثلج على رأي حسان (٣)، و يوما على متون الصافنات الجياد نقطع سهول حوران.

ومن غرائب الاتفاق الثقائي بصديقي جلال الدين البخاري (٤) فارا من عدوان الأتراك، فوافقتني ورافقتني حتى هبطنا البلقاء (مؤاب)، وألقينا عصا التسيار او الفرار في عرب بني صخر المحيمين قرب قرية الزرقاء، وحللنا ضيفين مستجيرين على شاهر الخريشة ابن عم حديثة شيخ هؤلاء الأعراب، ولم ننزل في سرادق الشيخ لسفره الى دمشق لاستلام الصرة، وهي الأتاوة التي يتقاضاها البدو مساهمة (٥) من الترك.

بنو صخر

من الأعراب التي اتخذت البلقاء منازلها، وهم ينقسمون الى قسمين: الخرشان والفانز، فالخرشان نسبة لخريشة الأب الأول، و يبلغ عددهم نحو (٥٠٠٠) نفس، لا عيش لهم الا بإبلهم التي ينقلون عليها الحمول بالأجرة صيفا: في عجلون وحوران، ويحملونها عند تغريهم وعودتهم من البادية ملحا من قريات الملح الواقعة في فاتحة وادي السرحان من جهة الشام.

✽ عدد مايو سنة ١٩١٧ ص ٤٤٥ - ٤٤٨.

١ - يعني مدينة حلب.

٢ - التركي، وبالتحديد الطوعاني، ونسبهم لجنكيز التتري. لانهم جميعا من الشعوب التركية.

٣ - يريد قوله (في شرح دوانه ص ١٦٤).

من دون بصري وخلفها جبل م. الثلج عليه السحاب كالقند

٤ - في الأصل النجاري، ولكنه عاد ف ضبطه في ما بعد «البخاري».

٥ - سنويا. نقول سنوي وسنوي كما نقول شهري وشهري

ويعيشون أيضا بالغزو المستديم، وهو حرفة الأعراب من القديم، وأكثر غزوهم (لمنطقة حوران) وقد شاهدت بعضهم يعيشون حول قرى الشراكسة، فيرعون مراعيهم و يقطعون من مغارسهم أشجار الصفصاف يتخذون منها أعمدة لخيامهم، وأوتادا.

وأقنعني الاختبار الطويل بصدق ما ذكره مونتسكيو العرب ابن خلدون عن هؤلاء العرب، وأنه لا يريد بهم الا الأعراب (١)، وإن التبس هذا على كثير من الباحثين فأساءوا الظن بفيلسوفهم العربي الكبير. فإن من جاب جزيرة العرب اليوم وعاش أعرابا وسبر روحهم البدوية — علم علما لا يشوبه ريب أن الحضرمي (٢) لا يقصد بالعرب — كما ذكرت — سوى أهل الوبر لا المدر (٣)، ومن اتخذوا بيوتهم من الشعر لا الحجر. وقد أعدت مطالعة مقدمته مرارا وأنا ملابسهم في ظعنهم وحلهم وغزوهم ورعيهم وإيرادهم وإصدارهم (٤)، فكنت كلما زدت بالبادية إقامة زدت بآبن خلدون إعجابا وإيقانا بأنه أعلم الناس بالبدو، أو، على تعبيره أحيانا في مقدمته، بالعرب، ومن يقرأ الفصل الذي كتبه في «أن العرب اذا تغلبوا على أوطان أسرع إليها الخراب»، وقوله فيه: «والخشب أيضا إنما حاجاتهم اليه ليعمروا به خيامهم، ويتخذوا الأوتاد منه لبيوتهم، فيخربون السقف عليه لذلك، فصارت طبيعة وجودهم منافية للبناء الذي هو أصل العمران» — يشهد بأن قوله هذا يحاكي قولي: أن (البدو) آفة الزراعة اليوم في اللقاء (٥).

ولم تختلف أحوال العرب في معائشهم وعوائدهم عن زمن ابن خلدون الا اختلافا يسيرا نشأ عن اختلاف أحوال المدن. وعلاقة أهل البداوة بأهل الحضارة مستحكمة العرى في جميع الأزمان.

هؤلاء هم الخرشان، وأما أبناء عمهم الفائز، فعددهم نحو ١٥ ألفا يرأسهم شيخهم فواز وهو رجل منور الفكر لدراسته في مدرسة العشائر المؤسسة عهد عبد الحميد، شديد النزعة القومية، معروف بين إخوانه بأخلاقه الكريمة. ويعد أن يلعب دوراً خطيراً على مسرح الثورة العربية.

١ — ما يزن المصريون يظنون على الأعراب سم «العرب». ولا شك في أن ابن خلدون والمصريين يصدرا في هذه التسمية عن مصدر واحد.

٢ — يعني ابن خلدون.

٣ — يعني البدو والخضر. والمد هو الغنم يسكن به.

٤ — الإيراد إلى الماء والإصدار عنه.

٥ — لا شك أن في هذا الكلام نغيب على الأعرب ومذاهبهم في ابن خلدون. فهم، وإن فعلوا، لا يفعلون ذلك رغبة في الفساد والغيث، ولكن ضرورت خيانتهم لثقت سود.

بنو صخر، ويقال لهم الصخور أيضا، ومنهم قسم يسكنون اليوم غور بيسان، حجازيو الأصل لادعائهم القرشية، والذي ذكره القلقشندي في صبح الأعشى (١)، وفي نهاية الأرب في أخبار العرب (٢)، أنهم من القحطانية، بطن من جذام مساكنهم بلاد الكرك من الشام، وتابعه الحمداني على ذلك أيضا، وهو أضرب في مفاصل الصواب.

وقد أقت والمرحوم رفيقي (٣) بين ظهрани هؤلاء الصخور شهر ذي القعدة سنة ١٣٣٢. وفي الخامس من ذي الحجة انتقلنا لعرب السرحان الذين عزموا على التبدي، وهو التشريق بلغة البدو.

نزلنا في مضرب الشيخ خنيفس (تصغير خنفس) أحد شيوخ السرحان، وكان نازلاً بعمره على بعد مرحلة صغيرة من الزرقاء شرقاً، في مراح يعرف بالأدعم، وهذا الاسم لم يذكره ياقوت، ومعنى الأدعم في القاموس: الفرس الذي في صدره أو لبته بياض، وكانه كان في هذا المنزل بقعة كلسية بيضاء فسمي بالأدعم تشبيهاً.

على الحضري المتبدي، سيما إن كان شريداً طريداً، أن يتجلبب في البادية بجلباب الفقر والإعدام، وأن يعمل بنصيحة ذلك الرحالة المجرب القائل: إذا سافرت فأخف ذهابك وذهبك ومذهبك. ولهذا رأيت ورفيقي أن نطلع الشيخ على عوزنا لما سلبه منا بعض عديمي المروءة، وباطلاعه على حالنا المؤلة تأثر، ووعدا بمساعدته إيانا بقدر ما في وسعه، وقد بر بوعده، جزى خيراً.

وعدد عرب السرحان نحو خمسة آلاف، وهم يسمى وادي السرحان (٥) الآتي ذكره، ومنهم من توطن الجوف (دومة الجندل) وسكاكة، ومن شيوخهم ابن بالي وابن رافع، وحقه

١ — انظر معجم القبائل ٦٣٤/٢ عنه.

٢ — ذكر ابن خلدون ٢٥٤/٢ أنهم من طيء.

٣ — هو جلال الدين البخاري، وهناك في الأصل هامش يقول: لأنه ألقى عليه القبض بعد ذلك، وشنق، رحمة الله عليه، في دمشق، بريثاً مظلوماً.

٤ — اللة موضع العقد من أعلى الصدر.

٥ — وكان يسمى قديماً وادي الأزرق، ولما نزل السراحين (من كلب بن وبرة) سمي بهم.

وقد ذكر الدكتور كاسكل أنه كان يعرف باسم رأس السر. والسرحان في اللغة الذئب، ومنه قول امرئ القيس في فرسه:

له أبطلأ ظبي ومساقي نعامه وإرخاء سرحان وتقرريب تستفل

انظر للمعلومات المكانية جغرافية الجزيرة العربية لمصطفى الدباغ ص ١٧ والمعجم الجغرافي لشمال المملكة العربية السعودية ١٣٣٦/٣، ١٣٣٧.

أن يدعى ابن خافض، لأنه باق^(١)، أي سلب ضيوفه المرحومين عبد الغني العربي، والأمير عارف الشهابي، وعمر حمد، وتوفيق البساط، وباق أيضا شيخ «جباتا الخشب» وماجاورها في جبل الشيخ (حرمون)، وهو الشهم الكرم والعربي الصميم أحمد مر يود، رعاه الله.

ومن عادة البدو إذا شرفوا^(٢)، أن يُغَلَّسُوا في التحمل، وهكذا لم يكد الصبح يتنفس حتى عُكمت الأحمال، وشالت الجمل الأثقال، وشرقنا صباح الجمعة من الأدع، وكنا نقطع يوميا مرحلة، ست أو سبع ساعات، بمعدل ٢٥ كيلومترا.

وفي المرحلة الثانية جزنا بالأزرق، وهو اليوم خرابة بجانبها ماء ترده الأباعر، والأزرق هذا أحد قصور الأمويين التي كان ملوكهم ينزلونها زمن التشريق. فقد روى صاحب كتاب العيون والحداثق (ص ١٢٠) أن الوليد بن يزيد كان يستوطنه في البرية. وذكر الأصفهاني^(٣) في أغانيه أنه كان ليزيد بن عبد الملك عدة قصور يتنقل إليها ويتصيد، كالزيزاء وفدين^(٤)، والأزرق، والأغدف، والنجرا، وقصر الأبيض في الرحبة، وعلى هذا يكون الوليد اقتدى بسكنى الأزرق بأبيه، ومن يشابه أباه^(٥) فما ظلم.

١ — البوقة في عرف البدو مخالفة قواعد المروءة البدوية المعروفة، وهي بمثابة خرق القانون في عرف المتدين، والباق يعاقب في البداية عقابا صارما يشبه الحرم الكهنوتي، وهو لا يؤكل ولا يجالس، ولا يسلم عليه، وهكذا نال ابن رافع جزاءه الشديد حتى رد الأسلاب، وأكد للعرب التازيل في الهزم (وسياتي ذكرهم) أنه ظن الذين باقهم قوما، أي عدوا باصطلاحهم، وأراد بالقوم الدروز لأنهم حينئذ كانوا قوما معادين. وللفظة بوقة اسم مرة من فعل عربي فصيح. قال في القاموس: (باق: جاء بالشر والخصومات. وفلان تعدى على إنسان أو هجم على قوم بغير إذنهم كالباق، والقوة، سرقهم) هامش في الأصل.

٢ — التشريق في عرف البدو هو الرحيل إلى شرق بادية الشام أوائل الشتاء عند طنوع سهل هربا من البرد، لقلّة ثائهم، وخفة سراييدهم الواقية، ولأن المياه تكثّر في هذا الفصل للأمطار فتكثر موارد ابنهم مما يساعدهم على الانتجاع والارتياح، فإذا جاء الربيع اعشوبت الأرض وأنبتت من كل زوج من الفول بهيج، فيكثر الرمث والثروة والشيخ والقيصوم، فتسمن ابلهم وتغز البان، وتنتج عشارهم على مهاد من الزمان وثير، مما لا يجدونه في أرياف الشام. ولا يزالون في البوادي متنقلين حتى يدمهم الصيف بحماراته، ويتصح النبت، ويتولى البادية الجذب، فيلوذون عندئذ بأرياف البلقاء وعجلون ومزارع الغوطة وحوارن والجولان، وهذا ما يسمونه بالتمريب. (هامش في الأصل). وحارات الصيف عكس صبارات الشتاء وهي أشد أوقاها حرا وبردا على الترتيب وتصوح البقل والنبت يسه. وتنتج العشار ولادة الإبل والدواب. والسرايل الملابس ويطنوع سهيل يبرد الزمان والعرب تقول: إذا طنوع سهيل برد الليل وأدخل الخيل.

٣ — ٢٠١/١٨

٤ — الفدين هي المفرق الآن. والزيزاء ما يعرف اليوم باسم «زيزاء».

٥ — في الأصل «أبه».

وقال ياقوت: (١) «والأزرق ماء في طريق حاج الشام دون تيماء»، ولم يعين مقره، إذ بينه وبين تيماء مسافة (٦٠٠) كيلومتر (٢)، ومن الأزرق للهزيم مرحلتان قصيرتان، ومنه لبصرى مرحلة على الطريق الرومانية المستقيمة التي يرجح أنها كانت طريق عبد العزيز في خروجه على الوليد كما ذكره دوسو Dussaud وأما أنا، فلقد شرقت عملاً بقول الشاعر:

وغرب، فالتفرب فيه خير وشرق إن بريقك قد شرقنا.

ولعمري، لقد شرقت من فظائع التوارنيين أيما شرق، فشرقت مع السرحان معبراً عن لسان حالي بلسان مقالتي هذا:

فان السرى والليل يقرس برده وسيرى في البیداء معتسفا يومي
وذرع الفلا ما عشت في غربة النوى وحيدا، فلا أكلني يطيب ولا نومي
لأفضل لي والله يا عادلي من مشاهدة التركي يقضي على قومي

وديدن هؤلاء العرب في التشريق قديم عهده، فقد كانوا أيام بني أمية يشرقون في بادية الشام في شتاء كل عام، وهو ما يسمونه بالتبدي (٣)، ولم يذكر ابن عساكر وصاحب الأغاني ملكاً أموياً إلا ذكراً تبديه، فكان خالد بن يزيد يسكن قصر فدين في البلقاء، وأظنه القصر الذي يجاوز اليوم عين الزرقاء، ويدعوه العرب قصر تبع (٤)، كعادتهم بنسبة كل بناء عبقرى إلى سليمان، كما فعلوا بنسبة بناء تدمر بالصفاح والعمد (٥)، وبنسبة الأبلق الفرد (٦).

١ - معجم البلدان ١/١٦٨.

٢ - الرقم ساقط في الأصل، ولكنه استدرك فذكره في موضع لاحق.

٣ - الخروج إلى البادية للاقامة فترة من الزمن.

٤ - بل هو الفرق.

٥ - يريد قول النابغة الذبياني (ديوانه ص ٨٢).

فخيس الجفن، إني قد أذنت لهم يبنون تدمر بالصفاح والعمد.

قال ياقوت: «وأهل تدمر يزعمون أن ذلك البناء قبل سليمان...» وأن كان هناك من يزعم أن الجفن بنته له. (معجم البلدان ٢/١٧).

٦ - جاء في معجم البلدان ١/٧٦ «وقال الأعشى: وهو زعم أن سليمان بن داود هو الذي بنى الأبلق الفرد... فقال:

بنساء سليمان بن داود حقبة له أزج عال وطبي موثق

وهو حصن السموأل بن عاديا بتياء.

وأخبرني بنو صخر أن بني هلال اجتازوا بهذا القصر وحاربوا ربه (١) أيام هجرتهم من الحجاز للمغرب، ومنعوه الماء، ولهذا القصر الصالح للسكنى إذا رمم، مناظر طبيعية سبتني محاسنها، وراعتني جداً كما راعت من قبلي خالد بن يزيد، وأولاد الخليفة عثمان. وفي الآثار عبرة لأولى الأفكار.

ذكرنا أن الوليد كان يتبدى إلى الأزرق، وكان يقطن الزيزاء والقسطل في البلقاء التي يلقبها العرب اليوم بذيل البادية، وكان معاوية يشرب بالصنبرة في الأردن، وبه اقتدى عبد الملك، إلا أنه كان بعد الصنبرة يقضي في الجابية شهر آذار، وكان يبلغ به التبدى أحياناً أن يصل دومة الجندل المسماة بالجوف اليوم، حيث كان له من واحتها الغناء متنزه جميل يحاكي متنزه الأمير نواف الشعلان حاكم دومة الجندل في يوم الناس هذا.

الهزيم (٢)

بعد أن خبت بنا المطايا مرحلتين قصيرتين من الأزرق (٤) بلغنا ضحى الثامن من ذي الحجة منازل الهزم، وهو مشتق من الهزم، بالفتح والسكون، وهو ما أطمأن من الأرض، والهزم بمعنى المفعول، أي المنزل المطمئن من الأرض، وهو في الواقع كذلك، مستوى الرقعة، ومبارك البقعة، والمراعي الطيبة حوله قاصرة (٥) ناضرة، وفيه من القلب (٦) المنقورة في الصخور الرملية ما يربى على العشرين، والصخور متكتلة، وهي المدعوة بمصطلح الجيولوجيين بالكونغلو مريت، فوقها طبقة رملية ثخانة متر هي الأرض، فالصخور كالأرض التحتية في عرف الزراعيين.

١ - صاحبه.

٢ - في الغور قرب بيسان.

٣ - بداية الحلقة الثانية، وقد نشر في عدد يوليو سنة ١٩١٧ ص ٢٣ - ٣٨.

٤ - ورد في هامش بالأصل «ذكرت في الحلقة السابقة أن رقوب ما يعين مقر الأزرق ذبيبة وبين تيماء مسافة ٦٠٠ كيلومتر. وكنت تركت في الحلقة المحظوظة فرائع لأحرار جهدي، المقادير شمس الشرب، ثم سميت وقدمت لمطعم قبل التحرير الحلقة، فاستدركت ما فرضت بالأصل، والمسافة هي تقريبا ٦٠٠ كيلومتر.

٥ - المرعى المصروفة قرب من الحارث (هزم في الأصل).

٦ - قال الأزهري: الغيب عند العرب المترادفة الحديثة مضوية وغير مضوية. واجمع هب، مثل سريد ونزد، وينفصه السدو اليوم الجليل. هب في الأصل. قلت: والمترادفة الحديثة حسنة أي قوة عاد. والمطوية هي التي ينبت أريجها بأخجارية. وغرب نجد ومن والأهه ينفصون الهدف جي في كثير من كلامهم.

وماء هذه القلب شروب غير بعيد الغور، وإنما يتراوح ما بين طول القامة والقناة^(١)،
ويمتزج بأبوال الإبل الواردة، فتعزف نفس الحضري عن شربه فيشر به مضطراً. وقد ورد ذكر
الهزم في معجم الحموي^(٢) بأنه موضع في قول عدي بن الرقاع حيث قال:

أخبر النفس إنما الناس كالعي — — — — —
من ديار غشيتها دارسات — — — — —
وبين الهزم ودمشق ما ينيف على ٢٠٠ كيلومتر، وفيه لبثنا يومين والثالث الأضحى،
ويعلنون مساء عرفة يوم العيد بإطلاق الرصاص من كل صوب، وصباح عيد الأضحى
يضحون كثيراً من الإبل، وتراهم يدعوا بعضهم بعضاً.

ومن عادة الفقراء هذا اليوم أن تأتي امرأة أحدهم بقدرها للبعير المضحى وتقطع منه قدر
الحاجة وتطبخه أمام بيت رب الضحية، ولا تحمل قدرها الا نضيجاً، وقد راجت في هذا
اليوم سوقنا لإضطرارنا لإجابة دعوة كل من ضحى، فكنا احتياطاً من التنافين نأكل من
كل ضحية نتفة، وإذا أكرمنا المضحى فبتقديم السنام المقطع، والسنام في نظر البدوي أسنى
قيمة من فخذ الخروف الطري لدى الحضريين، وكان هؤلاء المضحون يطلبون منا قبل غسل
الأيدي من الطعام ان نقرأ لأرواح أمواتهم الفاتحة.

وما راقني في الهزم إلا غناء الماتحين (المستقين بالدلو) الرخيم وهم يسقون إبلهم
الخوامس^(٣) الهيم، ويدعون هذا الغناء «الحدو»، وهو الحداء يحثون به النوق على الشرب،
كما تحث به على السير. وقد ورثوا هذه العادة، ولا ريب، عن اجدادهم الذين كانوا يغنون
لإبلهم حين المتح بأنواع الرجز، وهي الأبحر السهلة التي تناسب الحركة كالسير ونقل
الأثقال والرقص والمتح والصراع والقراع، وذلك مما عابه الشعوبية على العرب. وقد أتى
الجاحظ في الرد عليهم بفصل الخطاب. قال في صدر الجزء الثالث من البيان والتبيين:
«وكل شيء للعرب فإنما هو بديهة وارتجال، وكأنه الهام، وليست هناك معاناة ولا مكابدة،
ولا إجمالة فكر، ولا استعانة، وإنما هو أن يصرف وهمه الى الكلام وإلى رجز يوم الخصام، أو
حين يمتح على رأس بئر أو يحدو ببعير أو عند المقارعة والمناقلة أو عند صراع أو في حرب، فما
هو إلا أن يصرف وهمه الى جملة المذهب وإلى العمود الذي اليه يقصد، فتأتيه المعاني
إرسالا، وتنثال عليه الألفاظ انشially».

١ — — — — —
١ — — — — —
٢ — — — — —
٣ — — — — —
٤ — — — — —
٥ — — — — —
٦ — — — — —
٧ — — — — —
٨ — — — — —
٩ — — — — —
١٠ — — — — —
١١ — — — — —
١٢ — — — — —
١٣ — — — — —
١٤ — — — — —
١٥ — — — — —
١٦ — — — — —
١٧ — — — — —
١٨ — — — — —
١٩ — — — — —
٢٠ — — — — —
٢١ — — — — —
٢٢ — — — — —
٢٣ — — — — —
٢٤ — — — — —
٢٥ — — — — —
٢٦ — — — — —
٢٧ — — — — —
٢٨ — — — — —
٢٩ — — — — —
٣٠ — — — — —
٣١ — — — — —
٣٢ — — — — —
٣٣ — — — — —
٣٤ — — — — —
٣٥ — — — — —
٣٦ — — — — —
٣٧ — — — — —
٣٨ — — — — —
٣٩ — — — — —
٤٠ — — — — —
٤١ — — — — —
٤٢ — — — — —
٤٣ — — — — —
٤٤ — — — — —
٤٥ — — — — —
٤٦ — — — — —
٤٧ — — — — —
٤٨ — — — — —
٤٩ — — — — —
٥٠ — — — — —
٥١ — — — — —
٥٢ — — — — —
٥٣ — — — — —
٥٤ — — — — —
٥٥ — — — — —
٥٦ — — — — —
٥٧ — — — — —
٥٨ — — — — —
٥٩ — — — — —
٦٠ — — — — —
٦١ — — — — —
٦٢ — — — — —
٦٣ — — — — —
٦٤ — — — — —
٦٥ — — — — —
٦٦ — — — — —
٦٧ — — — — —
٦٨ — — — — —
٦٩ — — — — —
٧٠ — — — — —
٧١ — — — — —
٧٢ — — — — —
٧٣ — — — — —
٧٤ — — — — —
٧٥ — — — — —
٧٦ — — — — —
٧٧ — — — — —
٧٨ — — — — —
٧٩ — — — — —
٨٠ — — — — —
٨١ — — — — —
٨٢ — — — — —
٨٣ — — — — —
٨٤ — — — — —
٨٥ — — — — —
٨٦ — — — — —
٨٧ — — — — —
٨٨ — — — — —
٨٩ — — — — —
٩٠ — — — — —
٩١ — — — — —
٩٢ — — — — —
٩٣ — — — — —
٩٤ — — — — —
٩٥ — — — — —
٩٦ — — — — —
٩٧ — — — — —
٩٨ — — — — —
٩٩ — — — — —
١٠٠ — — — — —

١ — — — — —
٢ — — — — —
٣ — — — — —
٤ — — — — —
٥ — — — — —
٦ — — — — —
٧ — — — — —
٨ — — — — —
٩ — — — — —
١٠ — — — — —
١١ — — — — —
١٢ — — — — —
١٣ — — — — —
١٤ — — — — —
١٥ — — — — —
١٦ — — — — —
١٧ — — — — —
١٨ — — — — —
١٩ — — — — —
٢٠ — — — — —
٢١ — — — — —
٢٢ — — — — —
٢٣ — — — — —
٢٤ — — — — —
٢٥ — — — — —
٢٦ — — — — —
٢٧ — — — — —
٢٨ — — — — —
٢٩ — — — — —
٣٠ — — — — —
٣١ — — — — —
٣٢ — — — — —
٣٣ — — — — —
٣٤ — — — — —
٣٥ — — — — —
٣٦ — — — — —
٣٧ — — — — —
٣٨ — — — — —
٣٩ — — — — —
٤٠ — — — — —
٤١ — — — — —
٤٢ — — — — —
٤٣ — — — — —
٤٤ — — — — —
٤٥ — — — — —
٤٦ — — — — —
٤٧ — — — — —
٤٨ — — — — —
٤٩ — — — — —
٥٠ — — — — —
٥١ — — — — —
٥٢ — — — — —
٥٣ — — — — —
٥٤ — — — — —
٥٥ — — — — —
٥٦ — — — — —
٥٧ — — — — —
٥٨ — — — — —
٥٩ — — — — —
٦٠ — — — — —
٦١ — — — — —
٦٢ — — — — —
٦٣ — — — — —
٦٤ — — — — —
٦٥ — — — — —
٦٦ — — — — —
٦٧ — — — — —
٦٨ — — — — —
٦٩ — — — — —
٧٠ — — — — —
٧١ — — — — —
٧٢ — — — — —
٧٣ — — — — —
٧٤ — — — — —
٧٥ — — — — —
٧٦ — — — — —
٧٧ — — — — —
٧٨ — — — — —
٧٩ — — — — —
٨٠ — — — — —
٨١ — — — — —
٨٢ — — — — —
٨٣ — — — — —
٨٤ — — — — —
٨٥ — — — — —
٨٦ — — — — —
٨٧ — — — — —
٨٨ — — — — —
٨٩ — — — — —
٩٠ — — — — —
٩١ — — — — —
٩٢ — — — — —
٩٣ — — — — —
٩٤ — — — — —
٩٥ — — — — —
٩٦ — — — — —
٩٧ — — — — —
٩٨ — — — — —
٩٩ — — — — —
١٠٠ — — — — —

١ — — — — —
٢ — — — — —
٣ — — — — —
٤ — — — — —
٥ — — — — —
٦ — — — — —
٧ — — — — —
٨ — — — — —
٩ — — — — —
١٠ — — — — —
١١ — — — — —
١٢ — — — — —
١٣ — — — — —
١٤ — — — — —
١٥ — — — — —
١٦ — — — — —
١٧ — — — — —
١٨ — — — — —
١٩ — — — — —
٢٠ — — — — —
٢١ — — — — —
٢٢ — — — — —
٢٣ — — — — —
٢٤ — — — — —
٢٥ — — — — —
٢٦ — — — — —
٢٧ — — — — —
٢٨ — — — — —
٢٩ — — — — —
٣٠ — — — — —
٣١ — — — — —
٣٢ — — — — —
٣٣ — — — — —
٣٤ — — — — —
٣٥ — — — — —
٣٦ — — — — —
٣٧ — — — — —
٣٨ — — — — —
٣٩ — — — — —
٤٠ — — — — —
٤١ — — — — —
٤٢ — — — — —
٤٣ — — — — —
٤٤ — — — — —
٤٥ — — — — —
٤٦ — — — — —
٤٧ — — — — —
٤٨ — — — — —
٤٩ — — — — —
٥٠ — — — — —
٥١ — — — — —
٥٢ — — — — —
٥٣ — — — — —
٥٤ — — — — —
٥٥ — — — — —
٥٦ — — — — —
٥٧ — — — — —
٥٨ — — — — —
٥٩ — — — — —
٦٠ — — — — —
٦١ — — — — —
٦٢ — — — — —
٦٣ — — — — —
٦٤ — — — — —
٦٥ — — — — —
٦٦ — — — — —
٦٧ — — — — —
٦٨ — — — — —
٦٩ — — — — —
٧٠ — — — — —
٧١ — — — — —
٧٢ — — — — —
٧٣ — — — — —
٧٤ — — — — —
٧٥ — — — — —
٧٦ — — — — —
٧٧ — — — — —
٧٨ — — — — —
٧٩ — — — — —
٨٠ — — — — —
٨١ — — — — —
٨٢ — — — — —
٨٣ — — — — —
٨٤ — — — — —
٨٥ — — — — —
٨٦ — — — — —
٨٧ — — — — —
٨٨ — — — — —
٨٩ — — — — —
٩٠ — — — — —
٩١ — — — — —
٩٢ — — — — —
٩٣ — — — — —
٩٤ — — — — —
٩٥ — — — — —
٩٦ — — — — —
٩٧ — — — — —
٩٨ — — — — —
٩٩ — — — — —
١٠٠ — — — — —

١ — — — — —
٢ — — — — —
٣ — — — — —
٤ — — — — —
٥ — — — — —
٦ — — — — —
٧ — — — — —
٨ — — — — —
٩ — — — — —
١٠ — — — — —
١١ — — — — —
١٢ — — — — —
١٣ — — — — —
١٤ — — — — —
١٥ — — — — —
١٦ — — — — —
١٧ — — — — —
١٨ — — — — —
١٩ — — — — —
٢٠ — — — — —
٢١ — — — — —
٢٢ — — — — —
٢٣ — — — — —
٢٤ — — — — —
٢٥ — — — — —
٢٦ — — — — —
٢٧ — — — — —
٢٨ — — — — —
٢٩ — — — — —
٣٠ — — — — —
٣١ — — — — —
٣٢ — — — — —
٣٣ — — — — —
٣٤ — — — — —
٣٥ — — — — —
٣٦ — — — — —
٣٧ — — — — —
٣٨ — — — — —
٣٩ — — — — —
٤٠ — — — — —
٤١ — — — — —
٤٢ — — — — —
٤٣ — — — — —
٤٤ — — — — —
٤٥ — — — — —
٤٦ — — — — —
٤٧ — — — — —
٤٨ — — — — —
٤٩ — — — — —
٥٠ — — — — —
٥١ — — — — —
٥٢ — — — — —
٥٣ — — — — —
٥٤ — — — — —
٥٥ — — — — —
٥٦ — — — — —
٥٧ — — — — —
٥٨ — — — — —
٥٩ — — — — —
٦٠ — — — — —
٦١ — — — — —
٦٢ — — — — —
٦٣ — — — — —
٦٤ — — — — —
٦٥ — — — — —
٦٦ — — — — —
٦٧ — — — — —
٦٨ — — — — —
٦٩ — — — — —
٧٠ — — — — —
٧١ — — — — —
٧٢ — — — — —
٧٣ — — — — —
٧٤ — — — — —
٧٥ — — — — —
٧٦ — — — — —
٧٧ — — — — —
٧٨ — — — — —
٧٩ — — — — —
٨٠ — — — — —
٨١ — — — — —
٨٢ — — — — —
٨٣ — — — — —
٨٤ — — — — —
٨٥ — — — — —
٨٦ — — — — —
٨٧ — — — — —
٨٨ — — — — —
٨٩ — — — — —
٩٠ — — — — —
٩١ — — — — —
٩٢ — — — — —
٩٣ — — — — —
٩٤ — — — — —
٩٥ — — — — —
٩٦ — — — — —
٩٧ — — — — —
٩٨ — — — — —
٩٩ — — — — —
١٠٠ — — — — —

أقول، ومما يدل على أن الإمام الجاحظ يقلح الحز بقوله، أني كنت أتنقل من قليب إلى قليب، وأسمع من الأقوال المرتجلة بين مديح وتشبيب ووصف إبل يقالون بحببتها، وبيالغون بمدحها، ما تملأ به الدفاتر وتنفخ له المحابر، وما يهيج الطرب، ويعث الوجد، ويشير في الماتحين النشاط^(١)، ويشوق السامعين إلى المتح. فلقد وددت أن أساعدهم في المتح، لأشارك الإبل في الإصغاء، والماتح في الحداء. وقد اختص البدو قديما المتح ببحر الرجز لسهولة وتناسبه مع حركة إلقاء الدلاء في البثر ونزعها، وكما أنهم نظموا على هذا البحر الخفيف أراجيز الحداء، وبدؤ اليوم ينظمون أراجيز المتح على مجزوء الرجز المذيل. ومما استظهرته عن قلب المهزم قولهم:

يا مرحباً بالزوامل^(٢) شيالات المحامل
يا مرحباً بابلنا يا مبعيدات منزلنا
يا مرحباً بابلنا واللي بغينا شلنا
يا بوقرون المرس^(٣) كل حبتين بفرس
يا مرحباً بالابل يا مزوجات الخبل^(٤)
والبيت الأخير يدل على أن مهر نساء البدو الابل. وما يغنون به عند تحميل الأثقال

ونقلها قولهم:

إيه يا شيال أنت يا اللي حيلك حيل البنت
واستمعلت العرب الرجز لترقيص البنين والبنات، فقد روي أن شيخا من الأعراب تزوج جارية من رهطه، وطمع أن تلد له غلاما فولدت جارية فهجرها وهجر منزلها، وصار يأوي إلى غريبته، فربخبائها بعد حول، فاذا بها ترقص بنيتها وتقول:
ما لأبي حمزة لا يأتينا يظل في البيت الذي يلينا

١ - سمعت الهاميين عند نقل «المعل» وهو جذع سدر أو عتمة (زيتونة برية) يسقفون عليه البيوت - يقولون وهم يحملونه بشقة

أربعة شالوا امجمل وامجمل ما شالهم

يطمطمون. وهم يتعاونون في ذلك إلى حد بعيد.

٢ - الناقة والأتان.

٣ - نوع من الحبال

٤ - الأبله. وكان من عادة العرب قديما، وإلى عهد قريب أن يكون مهر نساءهم ابلا، ومن ذلك قديما تسمية النجوم التي تقع بين الدبران (حادي النجم) والنجم (الثريا) بقلاص النجم، حيث زعموا أن الدبران ماها مهرا للثريا، وفي ذلك يقول شاعرهم:

أما ابن حوط فقد وفي بعده كما وفي بقلاص النجم حاديها.

غضبان أن لا نلد البنينا تالله ما ذلك في أيدينا
وانما نأخذ ما اعطينا

فلما سمع الشيخ الأبيات مرحضراً (١) ، أي عاديا بفرسه، حتى ولج عليها الخباء،
فقبلها وقبل بنيتها، وقال: ظلمتكما ورب الكعبة.

ثم في الحادي والعشرين من ذي الحجة عزمت وصديقي المرحوم جلال الدين علي^(٢)
استئناف التشريق واللاحاق بشيخ الحويطات «عودة أبي تائه» قبل ان يبعد عنا كثيراً
بتحوله عن مراجه ونجيمه لدى قلب «العقيلة» بجانب قرية «كاف» من قرى الملح،
والمسافة بيننا نحو ثلاثين كيلومتراً.

وقد خرج الشيخ خنفس خارج الحي لوداعنا، وأوصى قريبا له متوجها على راحلته
وجهتنا، وأكد عليه التأكيد كله أن يرحلنا بتناوب الامتطاء في دربنا الذي لقينا منه، لعمر
الحق، نصباً. فقد سرنا مقدار ساعة ثم شرعنا في اجتياز سلسلة مستطيلة من الهضاب
والآكام، وهي مضبغة (مأوى للضباع) غيفة، وقد تناوبنا مع رفيقنا السرحاني الركوب،
واضطرت أحيانا للمشي محتذيا بمداس شامي (كندرة) احتذاء صديقي الذي قرح المداس
قدميه، فإنه لم يصنع للهضاب والشعاب، ولما أتعبني انتعاله، نزعت وسرت حافياً، فأرحت
قدمي قليلاً، إلا أنه سرعان ما يتعب الحضري الترف في وعوثة الرمال، ووعورة الجبال،
فكنت أقول في نفسي: ليتني اعتدت قبل هذا الجلاء الحفاء، وعملت بقول الخليفة الراشد
عمر بن الخطاب: «احفوا وانتعلوا، فإنكم لا تدرون متى تكون الجفلة» فلهذا، اضطرتني
تلك الجفلة، فاحتذيت كالسروجي الوجي، واحتذيت وصاحبي الشجا، واستطبنا الجوى،
وطوبنا الأحشاء على الطوى، ثم بعد اللتيا والتي، بلغنا عصارى النهار قرية كاف كبرى
القريبات الملحية، وانحنا الراحلة في دار شيخها طلبا للراحة، وكرعنا، لشدة الظمأ، الماء
كرعاً، وقُدّم لنا طبق فيه من كل صنف من التمر الكافي زوجان، فأكلنا من أطايبه تمرات
تقيم الأصلاب، وتنسي الأتعاب ثم أعدنا كرة السير الى «العقيلة» فبلغنا نجيم الحويطات
والشمس هابطة لتتوارى بالحجاب، ودخلنا فسطاط (٣) الشيخ عودة المنشود.

١ - الاحضار ضرب من جري الفرس دون الارباع.

٢ - هو البخاري، بالباء والحاء المعجمتين، نجل الشيخ سليم البخاري الذي طبع الأب لويس شيخو على نسخته المنقحة
كتاب الألفاظ الكتابية.

٣ - الفسطاط الخيمة، وبها سمي فسطاط مصر.

وبعد أن سلمنا عليه، وأخذنا مقاعدنا بين البدو، ألفينا فيهم نفرًا من الشام، أقبلوا وسلموا علينا، وأخذوا في محادثتنا، ولما سألونا عن الاسم، رأينا من الحزم الكتم، ومن الصواب أن نشك ونرتاب، فقلت لهم اسمي عبد الله نديم، وهو اسم كنت اخترته في الجولان، تفاؤلا بالنجاة، لما كان لهذا الاسم الميمون على صاحبه المعروف (١) من الفضل والبركة. وقال صاحبي اسمي سالم، قالوا: والنسب؟ قلنا من العرب. فقال أحدهم عن أخي جلال إنه لشقوته من بيت العظم، وإني من بيت الجزائري رجما بالغيث. فسكتنا وكأن السكوت أقرار. ثم قلنا لهم إنا لم نلذ بالفرار إلا حذرًا من التجند، فمن الواجب عليكم، لما بيننا من وحدة الوطن، أن توصوا بنا الشيخ عودة الذي لم نكن لنعرفه من قبل، وذلك كيما يسهل لنا الوصول الى الجوف. فوعدونا ووفوا بعد تناول العشاء، إذ عرفوا الشيخ بنا تعريفًا حسنًا دعاه ليقول، وكأنه قد علم من مواطنينا بعجرتنا وبجرتنا: لا بأس لا بأس عليكما. وليفرج كربكما، وليأمن عندي سربكما، فأنا أيضا من ذوي القومية، واخوان الجمعية فرحبا بكم إذ ندبتم أهلا، فأصبتم سهلا.

(قريات الملح)

جمع قُرْتِيَّة تصغير قرية وأضيفت للملح لأن بها في «كاف» ملاحات طبيعية، يعود ريعها لأمر الجوف نواف الشعلان، لا للديون العمومية، وهي عبارة عن عدة واحات من النخيل، في كل واحدة عدة بيوت قروية مشيدة باللبن، وأهم هذه الواحات قريات ثلاث كبراهن قرية «كاف» (٢)، «فثوة» (٣)، «فأثرة» (٤). وفي كاف ما يزيد على عشرين ألف نخلة باسقة، جعل الله منها رزق أهل القريات، ومن الملح، ينقلونه الى حوران وعجلون والجولان على متون الزوامل. وقد علمت ان منهم من يشتري بأثمانه بضائع دمشقية بما

- ١ - يعني عبد الله النديم صاحب «التنكيث والتبكيث»، من رواد النهضة الثقافية الأصيلة بمصر في القرن الماضي.
- ٢ - ومنه قول الامام علي: الى الله اشكو عجري وعجري. أي كل ما يكرهني، والبجر عقد في البطن.. هذا هو المعنى الأصلي.
- ٣ - تقع على خط عرض ٣١°٢٨' وخط طول ٣٧°٣٠' م يذكرها ياقوت وإن كان ذكر حصنا على ساحل البحر المتوسط بهذا الاسم، وأكثر اتصال اهبا وما جاورها من القرى مع مصرى الشام.. كان المعجم الجغرافى شمال المملكة السعودية ١١٣٣/٣
- ٤ - بكسر الميم. وتقع الى الشرق الجنوبي من التبت بمسافة من واحد، وهي غرموة التي في جبال حمسى. المعجم الجغرافى لشمال المملكة السعودية ١٢٨١/٣.

يصلح للبادية، كي يبيعها للعرب، فيربح من تجارة لن تبور، ربحاً جماً. وأما البدو، فهم كما ذكرت يحملون جملهم ملحاً، يدفعون ضريبة كل حمل رايلاً مجيدياً، ليعبوا في أرياف الشام الملح بالحنطة، وفي ذلك معاش لهم، وتخفيف لما يتارون.

الحويطات

قبيلة قوية انتشرت مساكنها في الشام من محطة العلاء الى معان والعقبة وغزة، وتشعبت فصائل وبطوناً كالتوائهة (١) والجوازي وبني عطية، والبدول، والدبور، وعمران، والبطحة والطرابين وغيرهم، وقد قدرهم الفاضل البتنوني بسبعين ألف بيت، وذكر بينهم الجازي، وهم الجوازي الذين يقال لهم أيضاً بنو جازي، وشيخهم عبطان بن جازي، ابن عم عودة شيخ التوائهة، ومنازل كلتا الجوازي والتوائهة معان، ولهم هناك بطش وصوله تخشاها الدولة التركية، وقد افترق، منذ بضع سنين، التوائهة عن بني عمهم الجوازي، لفساد ألقى بين الشيخين، فهجرت التوائهة منازل العمومة والحوالة إباء، وحرصاً على أن لا تُطلَّ بينهم وبني الأعمام الدماء هدرًا، وحالفوا الدولة، وصاروا يشرقون معهم ويغربون، ثم توثقت عرى الاخاء والمودة بين نواف وعودة كثيرًا، فزادت بذلك الدولة قوة على قوة في بادية الشام.

وحينما كنت نزيل التوائهة، غزا الشيخ عودة ابن عمه عبطان مرتين، فقتل في الأولى رئيس الحملة عناد بن عودة، رحمه الله، فقد كان شاباً حفيًا بنا؛ في السلم الرقيق المحبوب، وفي حومة الوغى ابن كربة ومردى (٢) حروب. وترأس الحملة الثانية الشيخ نفسه، طلباً بشأ ولده وخليفته من بعده. ورافقه كوكبة من الدولة عليهم فارس الشعلان، وخرج الفريقان ما بين فارس وراعي مطية مُكفَّرين (٣) في السلاح. ومما يجدر بالحضري أن يضربه هنا مثلاً بتجلد البدو وقوة احتمالهم، أن الشيخ عودة، حينما بلغه نعي حشاشته، لم يتنهد ولم يبك، ولا تسندت بالدموع عيناه، على أن الرنين (٤) في عرف الحضري، استراحة المنكوب وفيضة الملائن.

١ — هم الذين يعرفون في جنوب الاردن وفلسطين، وسيناء باسم التياها واعتقد ان ذلك نسبة الى «التيه» من سيناء وجنوب فلسطين، الا أن يكون الاشتقاق من تاه ينيه بمعنى تكبر واغتاال.

٢ — المردى والمرادة الحجر الكبير تكسره غيره من الأشياء.

٣ — أي تغطيه الأسلحة، لكثرتها.

٤ — الصياح فيه حزن.

إن الشيخ عودة رجل عرفته البادية بكرمه ونجدته ونخوته العربية، كما أن البدوي يعدونه أحد فحول الحرب في بادية الشام وقرومها^(١). وله ابن عم يقال له محمد دحيلان، يغزو معه ويشاطره هذه المناقب. وكثيراً ما كنت أذكر لعودة وقومه فظائع القتال، وما ينجم عن الغزو المستمر من البلاء وسفك الدماء، وأنه محرم عقلاً ونقلاً، فكانوا يعتذرون بأن الغزو ضرر لا مفر منه، ولهم فيه معاش، فلا يستغنون عنه، وأن في الضرب بالنار أخذاً بالثأر وغسلاً للعار، وأن لا طاقة لهم بجسمه، إذ نفعه أكبر من إثمه. والغريب أنهم يأخذون للغزو معهم الصبيان، ليعتادوا من حداثتهم شهود الميدان، والثبات في معترك الفرسان. وأما أنا فما لي بالغزو أرب ولا لي به يدان. بل كنت حينما اجتأب القفار أطلب السلامة من الحفيظ الستار، وقد طالما قلت في نفسي:

أشتهي أن لا أرى الغزو ولا الغزو يراني.

التضامن البدوي

ثروة البدوي لهذا الغزو سريعة الزوال، ولا تستقر على حال، تحاكي ثروة المقامر في المصفق (البورصة) إذ بينما ترى البدوي يضحى وهو ذو ثراء في ربه، إذ بك تراه يمسي، وهو لفقره المدقع، كأن قد ضرب على بصره وسمعه، ولكن البدو من مناقبهم التضامن في البلوى والتظاهر على البر والتقوى، فتراهم يتسابقون إلى مد يد المعونة للعزيز إذا ذل، فهذا يجود له ببعين وهذا بكساء وحصين، وذاك بعنزة أو عنزتين، وذلك بقربة أو علبة، والآخري رضح له بدرهمات يسترن مهتوك ستره، ويرأبن مصدوع أمره.

مكشنا بعد غزوة الشيخ بضعة أيام في مضربه الرفيع العماد، الكثير الرماد^(٢) وغيرنا مراحلنا انتجاعاً وارتياًداً، حتى هبطنا ماء يقال له المحيضر^(٣)، وكأنه تصغير مخضر أي

١ — جمع قرم، وهو الشهم الكرم.

٢ — كناية عن الكرم، وأول وروود هاتين العبارتين كان في شعر الخنساء.

٣ — لعله بالحاء، وبالحاء لم يرد في معجم بلدان شمال المملكة العربية السعودية ولا شك أن أحدهما صحف أما جملة المتقطف بأعجام الحاء أو المعجم الجغرافي بأهمال الحاء. حيث قال:

المحيضر: ورد ذكره في قصيدة لخلف الأذن من آل شعلان شيوخ الرولة في وقعة للرولة على بني صخر في الحماة قال فيها:

ذيب المحيضر مخصب عشب ما جاع
مكبر يسعب علي أبو عتاب

و يظهر أنه اسم جبل في أطراف الحماة. (١٢٠٠/٣).

قلت: الأرجح عندي بالحاء لأنهم يصفون الماء بالخنصرة، ولا سيما إذا كان سدماً علاه الطحلب. ويرجعه كلام التنوخي التالي، وكونه زار المكان.

مكان الخضرة، وماؤه شروب، وكنا كلما أمعنا في التشريق أمعن الجو في الاعتدال، ولج الهواء بالاعتلال، مما جعلنا لا نأسى كثيراً على ما كتبه الله علينا من الجلاء، وإن كان قد قرنه بالقتل فقال: «وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ» (١) فقد كنا صباح مساء نمتع النواظر ببهيج المناظر المتعددة المتجددة، ونستنشق أنقى الهواء الفياح بأريج الشيخ والقيصوم (٢)، وناهيك بشهرة عطور جز يرتنا العربية، التي غدت مضرب أمثال الأمم الغربية، مما أولع العرب بإيثار باديتهم الطيبة على بلادنا الحضرية. وهم، لتبدل المناظر أمامهم كل حين، عديم الحاجة للمسارح والصور المتحركة. فكل بيت من الشعر في نظرهم بيت من الشعر، فلا غرو إذا ما اختاروا هذا البيت الخفيف المحبب على بيتنا المنيف المقبب. ولا أقول قولي هذا تعصبا لهؤلاء الأعراب الذين هم مادة قومي العرب، فقد أقرهم بذلك قبلي المستشرقون الرحالون، وأي شهادة أرجح من شهادة نابغة مستشرقات الإنكليز، الآنسة جرتروود بل — Gertrude Lowthain Bell في رحلتها الموسومة بالغامر والعامر — The desert and the Sown إذ تقول صفحة ٣٨: وخيمة العربي مفتوحة لمهب الريح دائماً، وإذا ما اختلف المهب فالنساء ينقلن رواق البيت إلى جهة أخرى، فتري في لحظة أن بيتك قد تبدلت مرأيه وواجه أنسب المناظر الرائعة، فهو على صغره وخفته يرى راسخاً بقوة لا تؤثر فيها العواصف إلا قليلاً، وإن المسام الغليظة لنسيجه المتخذ من شعر الماعز، لتتسع ثم تتضايق بالرطوبة، فالبيت إلى أن يكف (٣) المطر بحاجة إلى ديمة مسوقة بعاصفة نكباء.

ولكني لم أكن مغرماً بهذه البادية إلا مرغماً، وإنما المعول على الحبيب الأول، فقد كنت لحنيني إلى أوطاني، وأنيني لفارقة خلاني، كما قال الشاعر، وفي قوله دليل أيضاً على غناء الماتحين وشقاء النازحين:

وبأ صاديّات صمن يوماً وليلة	على الماء يخشين العصي حواني
لوائب لا يصدرن عنه بوجهة	ولا هن من يردن الحياض دواني
يرين حباب الماء والموت دونه	فهن لأصوات السقاة رواني
بأوجع مني جهد شوق وغلة	إياها ولكن العدو عداني

١ — سورة النساء — الآية ٦٦

٢ — من نبات البادية طيبة الريح، يتداوون بها.

٣ — يسيل، يقطر

(الدين في البادية) (١)

الانسان ابن البيئة والمربي، والبدوي لخشونته وعُتْجُهيته (٢) في أخلاقه شراسة، وقسوة، فهو لا يشعر بما يشعر به القروي المتحضر من عواطف الرحمة والحنان، أو ما تجمل به من محاسن الحضارة، كاللين واللفظ ورقة الطبع وخفة الظل إلا قليلاً. ولهذا ورد في الكتاب العزيز أن الأعراب أشد كفراً ونفاقاً (٣) وإن كان منهم من يؤمن بالله واليوم الآخر. ولهذا ترى البدوي اليوم يُكب مُسَلِّماً على رأس أميره أو شيخه، بأن يقبل رأسه استنجاحاً لطلبته، مما لا يقوى عليه الحضري من تحمل إكباب كل بدوي على رأسه، ولهذا كان يضطر الأمراء الأشراف في الحجاز، إذا ازدحم البدو في السلام عليهم، أن يقولوا لهم: (النظر تحية) أي قد يغني النظر مع الاحترام والسلام عن التحية وعاداتها المعروفة.

ومما حفظته كتب الأدب لنا أن رجالاً من وفد تميم نادوا النبي (صلى الله عليه وسلم) باسمه من وراء الحجرات فقال الله تعالى «إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ» (٤). فالبدو لخشونتهم، وتوحش بواديهم، جفاة الطباع، قساة القلوب، وأشد الناس حاجة الى ما يشذب من أخلاقهم، ويثقف من أميالهم، وينبسط ماء الحنان والشفقة من قلوبهم. والبدو لفقد الوازع بين ظهرانيهم، وقد انتشر العلم في قبائلهم، بحاجة كبيرة الى الدين البسيط الحالي من الخرافات، وهم أشد الناس خضوعاً للدين إذا عرفوه، وله في نفوسهم تأثير شديد جداً.

في القرون المتأخرة عم الجهل بالدين جزيرة العرب، اللهم إلا بعض جهاتها كعمان واليمن، ولم يستفك العرب من سباتهم، ولا انقشعت عنهم ظلمات الجهالة إلا بعد قيام محمد ابن عبد الوهاب وآل سعود بثورتهم الدينية والسياسية القومية. فترى اليوم أن عربان نجد والقصيم أقل من عربان بادية الشام وسواد العراق شروراً وجهلاً بأمور الدين، فعرب شمر مثلاً يصلون، وأما الرولة فلا يعرفون إقامة الصلاة.

البدو كالناس، على دين ملوكهم، ولذا امتاز التوائهة عن سائر البدو في الشام بذكر الله أحياناً وإقامة الصلاة، لأن شيخهم عودة لا يتركها، ويأمر قومه بها، فتراهم اذا حانت الصلاة هروا الى الأرض، وتيمموا صعيداً طيباً ثم أذن مؤذنهم، وهو شاب جوفي من

١ — بدياه اخلعه الله، وقد نشرت في عدد أغسطس سنة ١٩١٧ ص ١١٩ — ١٢٤.

٢ — العتجيه: هي الجفاة والخشونة في المطعم وغيره، وكل ما هو من لوازه البادية الوعرة.

٣ — يريد قوله تعالى «الأعراب أشد كفراً ونفاقاً، وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله» التوبة ٩٧.

٤ — سورة الحجرات الآية ٤

الوهابيين الحنابلة، فاصطفوا للصلاة، وتنزلت عليهم السكينة وكأن على رؤوسهم الطير، فيعلوهم ذلك التعبير الرهيب: الله أكبر^(١) ! فكنت أصلي معهم وأقول راکعاً ساجداً في نفسي عند كل تكبيرة: الله أكبر، وما أعظمك يا محمد، كيف استطعت ان تجمع من هؤلاء العرب الكلمة، وتعلمهم بمثل هذه الصلاة النظام والتواضع والرحمة.

ولعلمي بما للدين من قوة التأثير في نفوس البدو كنت اذا قابلت جماعة من العرب، وداخني منهم ريبة، وتبينت الشرفي أعينهم، أظهار بتلاوة الأذكار والتسبيح والاستغفار، بل أكثر من ترداد البسملة، والهيللة، والحمدلة، والسبحلة، والحسيلة، والحقولة، وأعلمهم بأنني من رجال الله وطالبي العلم بالأزهر، لا ضاربي الدف والمزهر. وقد دعاني لهذا الشيخ عودة ابوتائه مراراً للوعظ والتذكير، فكنت أفسر لهم بعد كل صلاة عصر شيئاً من الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، ما أتخذه، والحديث ذو شجون، سلماً للمقاصد القومية، فأذكرهم بمجد أسلافهم العرب، وما كان لهم من علم وعز وسلطان، وكيف كانت تفد أعراب البوادي على عرب الحواضر، لتروي لهم أشعار من كانوا في الجاهلية ولغتهم وآدابهم، وما كانوا ينالونه بذلك من خيرات الخضر والحفاوة والإكرام، وكيف قلب لهم اليوم بتحكم الأتراك مجن الدهر، وعضتهم أنياب العيلة والفقر، حتى ألصقتهم بالأرض أحكام العسر والقسر، وهلم جراً، من العبارات التي كان يبدو عليهم التأثير بها، والتحسر، وتثير من جوانحهم كوامن الغضب على القوم الظالمين.

(نخوة العرب)

هي اليوم اكتناؤهم بالأمس في مقام الافتخار، أو ميدان الحرب والجلاد، وكل قبيلة لها نخوة عربية معلومة، والتي لا نخوة لها لا شرف لها، وتكون النخوة باللقب الممدوح، أو التكني بأب، أو أم أو أخ أو أخت، وقد يكون للقبيلة نخوة، ولشيخها أخرى، كعرب الحويطات، فإن نخوتهم «أخوة صالحة» ونخوة عودة أبي تائه «أخوة عليا» وعلياء هذه هي شقيقته، زوجة ابن عمه عبطان بن جازي، شيخ الجوازي الذي مربنا ذكره.

ونخوة الشعلان «رعاة العليا» وبني صخر «رعاة العرفا» وهي الناقة المنيفة السنام لغة. ونخوة السرحان «رعاة البويضا» ثم بنو صخر كما قدمنا فصيلتان: الفائز ونخوة أحدهم «أخوبلها» وفي القاموس أن البلهاء هي المرأة الكريمة العزيزة. ونخوة الخرشان «أخوفلوة»

١ - في الأصل «الله وأكبر» ولا أصل للواو، ولكن بعض المؤندين يمد ضمة الهاء من لفظ الجلالة فتبدواوا.

وأظن فلو تأنيث فلو وزان عدو، وهو المهر، تحرفت بعد أن قيل في البادية «هذه عصاتي» (١).

ومن عادة العرب مدح الفتاة النجبية بقولهم: فلانة مهرة عربية كما قال الشاعر:

«وما هند إلا مهرة عربية» (٢) (١)

ونخوة الشرارات بنو مكلب (٣).

(وادي السرحان)

لم يرد له في معجم البلدان ذكر، وهو مضاف الى قبيلة السرحان، وربما كان في القديم مضافا الى غيرها، وهو ممتد من قرى الملح الى قرب دومة الجندل. وأرضه رملية منبسطة، يغشاها أحيانا بساط خفيف من حصي المرو والصوان وبعض الآكام. ويحد الوادي شمالاً سلسلة من الجبال التي تبدو حمراء للركبان، وهي لا تعلو عن سطح الأرض كثيراً. وهذا الوادي لا يظلم مرتاده لكثرة آباره (٤)، ولذلك تختاره القوافل السيارة بين الجوف والشام.

وكنا نرى أثناء سفرنا في هذا الوادي آثار الضباع والغزلان والمها، ومن الطير آثار النعام والحبارى. وبالبدو قرم الى لحوم الحبارى التي يصطادونها بالصقور. ورأيت أسراباً من الطير كالحجل، فأردت أن أسأل البدو عنه فسمعت صوته وقد كاد أن ينطق: قطا. قطا. قطا. بحروفها، فغلب على ظني أنه القطا بعينه، ثم سألت بدوياً كان يحاذيني من الركب عن اسمه فقال: القطا، فصرت أترنم بالبيت الذي يستشهد به النحاة في إنزال ما لا يعقل منزلة العاقل، وأناادي كمجنون ليلي القطا حيننا الى ديارى وشغفا بحب سكانها:

أسرب القطا هل من يعير جناحه لعلي الى من هويت أطيرو
ثم تعود ثانية وتقطط فأذكر قول الشاعر:

«يا حسنها حين تدعوها فتنتسب»

١ — أول لحظ ظهر في البادية والصواب ان يقال هذه عصاي. قال القراء انه أول لحظ سمع بالعراق (المزهر ١/٣٢).

٢ — وتماه:

..... سليلة أفراس تغللها بغل

قيل: ان هذ بيت النعمان بن بشير هي التي كانت تده زوجه.

٣ — لأنهم يعودون بنسبه الى كعب بن وبرة.

٤ — وهذا يفسر رد «باير» الى أبائر، وتفسيرها بأنها جمع بئر — آبار — أبائر.

وسنعرض لوادي السرحان وباير في معجم البلدان الأردنية والفلسطينية.

(أويست)

بعد أن جزنا ماء المخيض مررنا بماء العيسوية (١) ، ولا ذكر لها في معجم ياقوت ، ثم أنحننا رواحلنا في أويست (٢) لأنها تصغير واسط ، ولم ترد في معجم البلدان أيضاً ، بل ورد واسط ، وسمي به مواضع كثيرة في جزيرة العرب ، وهي سبعة حسب رواية أبي الندى (٣) ، وحول أويست مراع طيبة .

(مراعي البادية)

ليس في البادية مراع صناعية كما في القرى المتحضرة والأرياف الزراعية ، وهي خاصة بالابل ، وقد يوجد من النبات ما يصلح لرعي سائر المواشي ، وهذه المراعي عبارة عن أعشاب منشورة في سهول البادية وأوديتها وآكامها ، وهناك من الأشجار الشائكة (الغضاه) وغير شائكة (٤) تقضم الابل أطرافها الخضراء في السنة المجذبة ، ويطلق البدو اليوم الشجر على الأعشاب وماله ساق من الأشجار ، كالغضا ، والأثل ، والسدر ، والسلم ، والطلح ، والطرفاء مما ينبت في البادية .

والأعشاب منها ما هو حمض يقوم للابل مقام التوابل (٥) ، كالروثة والرمث ، وقد ذقتها فاذا بها شيء من الحموضة ، وهي وسائر الأعشاب يتراوح طولها ما بين شبرين أو ثلاثة ، وأوراقها دقيقة ، وللروثة زهر أحمر جميل . ومن الأعشاب ماله عرف شذي تعبق منه البادية ، كالشيخ والقيصوم ، وهما مع الروثة والرمث أحب المرعى للابل ، لأنها تسمن وتغني من جوع ، ولذلك ترى البدوي إذا ارتاد أو وصف أرضاً مخضبة لا يبدأ إلا بذكر هذه البقول الطيبة ، كما كان يفعل البدوي الجاهلي . فقد روي أن أعرابياً وصف أرضاً أحدها فقال : «خلع شيخها ، وأبقل رمثها ، وخضب عرفجها ، واتسق نبتها» ومعنى قوله خلع شيخها ، أي : أورك ، وخضب عرفجها ، أي أسود لحضرتها ، واتسق نبتها أي تمام .

١ — هي العيساوية ، كأنه مسوب إلى عيسى . تقع في ملتقى طرق متعددة إلى الجوف فالقريات ، ومن وادي المرحان إلى تبوك عن طريق تباء . المعجم الجغرافي ٩٦٢/٣ .

٢ — انظر المرجع السابق ١٥١/١

٣ — انظر معجم البلدان ٣٤٨/٥

٤ — الغضا شجر الشوك ، الواحدة غضاة ، والسرح كل شجر لا شوك له . الواحدة سرحة .

٥ — تقول العرب اخمة حيز لابل واحمص فاكهتها . ومنبت الخلة ، وهي كل شجر ليس بعمض . يسمى الندوة . قال راجزه :

فـقـربـوا كـل جـالـي عـضـه
أي كل يعرضه ، قريب خيره منه وفاكهته .
٦ — خلع الشيخ والتحركه إذا أورك وأنت ورك ضري .

ومن الأعشاب التي تهيم بها الإبل التّيصّي، فما ادخرته لنا كتب الأدب أن الأخص بن جعفر بعدما كبر وعمي، وبنوه يسوقون به الأباعر قال لهم: «أي شيء ترتعي الإبل؟» قالوا: الثّمام والضّفة. قال: «سوقوا» ثم عادت فارتعت بمكان آخر فقال: أي شيء ترتعي الإبل؟ قالوا: العضاه والقضة. قال: سوقوا حتى إذا بلغوا بلداً آخر قال: أي شيء ترتعي الإبل؟ قالوا: نصيا وصليانا. قال: مكفية لرعائها، مطولة لذراها، ارعوا واشبعوا. ثم سألهم أي شيء ترتعي الإبل؟ قالوا: الرمث. قال: خلقت، منه وخلق منها.

قال أبو صاعد (١): وزعم الناس أن أول ما خلقت الإبل من الرمث، وعلامة ذلك أنك لا ترى دابة تريده إلا الإبل. وقد رأيت حاشية البيان والتبيين صفحة ٧٧ من الجزء الثاني تذكر أن الرمث مرعى الإبل، وهو شجري شبه الغضا، وهو تعريف غير صحيح لأن الرمث لا يزيد ارتفاعه على شبرين أو ثلاثة، والغضا قد يستظل بشجرته الاثنان والثلاثة من الركب، وقد ينمو فيبلغ ثلاثة أمتار علواً.

قال المصباح: والرمث وزان جمل، مرعى من مراعي الإبل، ينبت في السهل، وهو من الحمض. وهذا التعريف صحيح بيد أنه غير مخصص.

وقد شاهدت شجر الأوطى لا تعلو شجرته ارتفاعاً على متر، ويتخذ البدو منه صبغاً، ووقوداً من قصبانه، ورأيت العرفج، وبقلاً يقال له القرط ترعاه الإبل. ومن أزهار البادية: الأقحوان، والحوذان، وشقائق النعمان، ثم إن الاثنان من نبات البادية، وهو معرب، وبالعربية الحُرّض، يجمع البدوي منه ما يقوم مقام الصابون، وإن كان للبدو صابون آخر لغسل الأيدي من الطعام، وهو طرف بيت الشعر يمسحون به بعد انتهاء الأكل أكفهم مما علق بها من الأدهان.

وكنا إذا أمخنا مساء رواحنا، نجتمع من الشجر اليابس أو العشب المهشم ما نتخذه وقوداً لطعامنا، ودفاً في الليل لأجسامنا، فليس — كما قالت العرب — شيء أدفاً من شجرة ولا أظلم من شجرة.

١ — هو أبو صاعد الحسن بن صاعد، قال ابن عساكر: كان يغرب في أشياء يحترعها. توفي سنة ٤٧٥هـ. تهذيب تاريخ ابن عساكر ٣٦٠/٦.

(الميسري) (١)

مكثنا بضعة أيام في بيت عودة بعد أن ذهب، كما سبق، للغزو ثم صعبت على رفيقي عيشة البادية الحشنة، وكنت أشد منه جلدأً، وخشنا عاقبة الغزو المربية، فاستأجرنا راحلة بليرتين فرنسويتين، ليوصلنا صاحبها عليها للجوف، وهو من عرب التوائهة، لا يركن اليه. وقد مررنا بقليل بجانبه نخلة واحدة، ويقال له الميسري، بكسر الميم وفتح السين. وذكر ياقوت (٢) الميسر، ونص على أنه موضع شامي، والميسري كذلك أقرب للشام منه الى نجد. وقد لقينا في سفرنا هذا كثيراً من الأرناب البرية، ويلقبها البدو بغزلان الحماد، أي البادية المرتفعة، فبينما يكون البدوي راجلاً، لا يشعر إلا وأرنب تشب بغتة من جانبه، فإن تمكن منها حذفها بعصاه، وإلا أدركتها الكلاب إذا كانت سلوقية، ولا يعلم بالتحقيق الزمن الذي استعمل فيه الانسان الأول العصا للأذى، ففي الأمثال العربية القديمة: «تخذه بالأرنب كما تخذف الأرنب بالعصا».

(الجراوي)

وما زلنا نضرب في البید غوراً ونجدأً، حتى جزنا بموضع يقال له الأُبْك (٣)، فذكرني نبك قلمون في الشام، وكنا آنئذ نواصل السرى تحت جناح الظلام، وفي ثاني يوم أوردنا رواحلتنا قلب الجراوي (٤)، بعد أن لقينا من لفحات السموم في القلاة ما هو، لعمرى، أحر من دمع المقلأ. فأئخنا لنروي، فوجدنا الماء لقللة المتح، كما يعلله البدو، متغير اللون والطعم والرائحة، وفيه مع ذلك خلق من الدود كثير، فهرول صاحبي لينقع غلته من علبه الماء، فصار يتجرعه ولا يكاد يسيغه، حائراً للبدو كيف يكرعونه وهم يقولون: «ترى البدو أباعر بأاعر» (٥) ! أما أنا، والحاجة تفتح باب المعرفة، كما ورد في الأمثال العربية القديمة، فقد أخرجت

١ — هكذا ضبطه حمد الجاسر ١٢٩٦/٣ وقال: كأنه منسوب الى الميسر، وهو سهل يقع جنوب طبرجل بقرها، يدعه طريق من الجوف الى القرىات يساره.. و يقرن بالنبا، يقال: الميسري والنبا. وسيأتي ضبط التنوخي بكسر الميم وفتح السين، ولعل هذه هي اللغة الدارجة.

٢ — ٢٤٣/٥ ميسر: موضع شامي.

٣ — حمد الجاسر ١٣١١/٣ وذكر ياقوت نبك الشام ٢٥٨/٥.

٤ — حمد الجاسر ٣١٥/١ وذكره ياقوت ١١٧/٢ وقال انها مياه في بلاد القين بن جسر، وهي قلب على طريق طيء الى الشام..

٥ — ومعناه انهم يشبهون أنفسهم بالابل في شربها ذلك الماء، وفي غير هذه الصفة، وقد سمعت عرب بني شهر وغيرهم يقولون: فلان «جل كل ديرة» اذا كان لا يعاف شرباً أو طعاماً، وهذه خصية يحمونها.

منديلي وملأته رملاً نقياً، وصفت الماء برشحه من الرمل في العلبة، فتضاحك البدو لما صنعت تضاحكاً مازجه حسرة على شقائنا!

والجراوي هذا على بعد نحو مئة كيلومتر من دومة الجندل، ومن الغريب أن ماء هذا القلب الآسن الوخيم كان مهجياً مقلباً من القديم، واليك قول ياقوت: (١) «الجراوي يروى بضم الجيم وفتحها والضم أكثر، وهي مياه في بلاد القين بن جسر وقيل هي قلب على طريق طيء إلى الشام، وقيل مياه لطية بالجبلين، قال بعض الأعراب:

ألا لا أرى ماء الجراوي شافياً صداي ولوروى غليل الركائب
فيالهف نفسي كلما التحت لوحة على شربة من ماء أحواض ناضب»
وترى هنا أن معجم البلدان لم يعين لنا موضع هذا الماء فمن المحتمل وحدة الاسم وتثليث المسمى، والقول الثاني يطابق الجراوي الذي وردته، لأنه على طريق طيء إلى الشام.

(طعام البادية) (٢)

لا يزال البدو مقتصرين — كما ذكر ابن خلدون — على الضروري من الأقوات والملابس وسائر الأحوال والعوائد، ومقصرين عما فوق ذلك من حاجي أو كمالي (٣)، ويتناولون أقواتهم بعلاج أو غير علاج، إلا ما مسته النار، وذلك لاضطرار البدوي إلى التنقل في كل حين، فاختر بحكم معيشته الأيسر تناولاً، فتأنق الحضارة أمر لم يعرفه البدوي، فإنه إذا أقام أياماً في منزل وأكل العصيدة، عد ذلك من النعيم، وهذه العصيدة عبارة عن اللبن الحليب يغلى، فيذرون عليه الدقيق تارة، أو يضعون فيه البر الجريش «البرغل»، وقليلاً من الدهن، ويقال لها حينئذ الجريشة. وإذا ضيف رجلاً عزيزاً ذبح له نعجة أو خروفاً، ودعا إكراماً للضيف كثيراً من البدو لمؤاكلته، فكنا نفرح إذا ما حل بنا ضيف لنصيب حظنا من لحم لا نذوقه في البادية إلا قليلاً. أما في الأعياد والأفراح فيذبحون الأبل الكوماء، لأن لحم البعير عند البدوي سيد اللحم كله. وكان ير يكان الصليبي إذا أراد أن ينعمني بطعام العشاء طبخ الأرز، ويسمونه «التمن» وبعد أن ينضج بأوساخه يضعه في باطية، ويحفر في أوسطه حفرة يضع بها الزبدة التي تذوب بحرارة الطعام، فتلبك الأرز بالزبدة، ونزدرده ازدرداً.

١ — ١١٧/٢

٢ — بداية الحلقة الرابعة وقد نشرت في عدد أكتوبر سنة ١٩١٧ من ٣٣١ — ٣٣٦

٣ — أي مما هو ضروري أو يحد في الكماليات.

وكان شاهر الخريشة الصخري يذيب السمن و يأتينا به بمقلاته، فتغمس فيه خبز الصاج الفطير، وقد يمزج لنا السمن بمستحلب الأقط (١).

وبقينا هكذا أياماً لا نغتذي الا بالخبز والسمن، وقد ورث البدو هذه الأكلة النفيسة عن أسلافهم في الجاهلية، الذين كانوا يسمونها «الترويل» فقد نقل الثعالبي عن ابن الأعرابي قوله: «فاذا دلكت الخبز بالسمن فهو الترويل» ولا يزالون على آثار آبائهم الأولين في صنع خبز الملة. وذلك بأن يلتوا الدقيق بالماء، ويعجنوه عجنًا خفيفًا، ثم يحتطبوا ويوقدوا، فيفرشوا الجمر، ويطرحوا عليه الرغيف الثخين، ثم يغطوه بما بقي من النار، فاذا نضج الرغيف تقاسموه. وأكثر ما يصنع خبز الملة في السفر، وأما في الإقامة، فيأكلون خبز الصاج، وفي كلتا الحالتين لا يذوقون الخبز الخمير لأنه من الرفاهية التي حرم منها البدوي، فاذا ما ظفر بها شكر الله على تلك النعمة كثيراً.

وقد كان سلف هؤلاء البدو الصالح يعد الخبز الخمير من فاخر القرى، فما رواه لنا عبد الله بن مصعب قال: وقف معاوية على امرأة من بني كنانة فقال لها: (هل من قرى) قالت: نعم قال: «وما قرأك؟» قالت: «عندي خبز خمير، ولبن قطير، وماء نير» (٢). وفي حديث أبي ذر رضي الله عنه: «الحمد لله الذي أطعمنا الخمير وسقانا النير» (٣).

وسيد طعام القرى البدوية، كدومة الجندل (الجوف) وسكاكة، الدفينة، وهو الثريد الذي كان العرب قديماً، اذا أرادوا أن يفضلوا رجلاً قالوا: فضل فلان على سائر قومه كفضل الثريد على سائر الطعام. وتعد الدفينة من بذخ العمران البدوي، وقد أكلتها في دومة الجندل مراراً، فألفيتها لذيدة شهية، ولا تصنع الا للولائم، أو قرى لضيف كريم. وطريقتهم في عملها أن ينضدوا في طشت كبير (منسف) من رقائق الخبز نضداً يكفي المدعوين، ثم يغطون هذا النضد بطبقة من الأرز، ثم يأتون بالذبيحة ناضجة، فيسقون بمرقها الثريد، ويكومون اللحم فوقه تكوئاً.

والصابون الذي نعهده من مرافق العمران لا يوجد في البادية الا نادراً، فما كان صابوننا

١ — الأقط: ويقال له اليوم الهقط وقد شاهدهم يصنعونه من اللبن الحامض ويتخذون من جبه أقراصا صغيرة يجففونها في الشمس ليذخروها مؤونة لهم في الاسفار.

قلت: يسمونه في بلاد قحطان المضير أيضاً، وهو الجميد في الأردن وفلسطين ومثله.

٢ — المسان (نير) بحرقه.

٣ — نفس المرجع والمادة.

بعد الطعام الا أن نسمح أكفناً (١) من الدهن الكثيف بطرف الشقة من بيت الشعر. وما استغنى البدوي عن الصابون الا اقتصاداً في الماء القليل في البادية، كاستغناء الشارع بالتيتم عن الوضوء. وهم انما يدخرون الماء للطبخ أو اطفاء للعطش الذابح كما يعبرون. ولم أر بدوياً يمسح يديه بلحيته بعد الطعام وان كنا نسمع في بلاد الشام أن «صابون العرب لحاها»، ولا ينزل قدرهم عن أثافي الموقد، ويصب الطعام في الجفان، الا ويحدق فيها البدو أحداق الخوارج بأبي نعمة (٢)، يلحقونه وهويكا: لشدة حرارته يفور. فكنت ورفيقي نطلي جدار الجفنة بالطعام تبريدا له، فيستطاع نوعاً ما أكله. وكثيراً ما كنا ننزع من طعامهم يدينا بسرعة، ونحرك في الهواء أصابعنا ملذوعة، مستعيزين بالله من النار والطعام الحار، ولذلك كنا أبطأ القوم أكلاً، ولم نكن بأعجلهم.. وقلما قمت عن الجفنة الا جائعاً، لأن يدي ما كانت لتصل باللقمة الى فمي مرة الا وتكون يد البدوي قد وصلت، كما يشهد الله، عشراً. فالضرورة وحدها هي التي كانت تجعلني عاملاً بالحديث الذي أخرجه الترمذي عن المقدم بن معد يكرب: «ما ملأ آدمي وعاء شراً من بطن» (٣) وهي التي كانت تدعوني لأتمثل بقول حاتم:

فانسي لأستحي أكسلي أن يرى مكان يدي من جانب الزاد أقرعاً
أكف يدي من أن تمس أكفهم اذا نحن أهويننا وحاجتنا معاً (٤)

ولهذا كان أهل الذوق من الأعراب يلاحظون ما يصيبنا من الغبن الفاحش بشاركتنا أياهم في الأكل، إذ «سباق المذكيات غلاب» (٥) فيضعون بصحفة لتأكل على حدة، ونشبع على رسلنا. والله ما أصدق ذلك البدوي الذي قيل له: ما اسم المرق عندكم قال: السخين (٦). قيل فاذا برد. قال: لا ندعه حتى يبرد.

وقبل أن ندرك الجوف اصطاد بعض صحابتنا حيواناً صغيراً، أبيض البطن، رمادي

١ — ومثله قول امرئ القيس:

فشق بأعراف الجياد أكفنا اذا نحن فنا عن شواء مهضوب

٢ — هو قطري بن الفجاءة، وهذه كنيته وقت الحرب، أما في السلم فأبو محمد (اللسان: نعم)

٣ — الترمذي — كتاب الزهد ص ٤٧ وابن ماجه في الأطعمة ص ٥٠ وأحمد بن حنبل في مسنده ص ٤، ١٣٢

٤ — ديوان حاتم ص ١٨٢، ١٨٣ (ط المديني — القاهرة) تحقيق د. عادل سيمان برواية:

وانني لأستحي صحابي أن يروا مكان يدي في جانب الزاد أقرعاً

اقصر كسفي ان تنال أكفهم

٥ — اللسان (ذكا): جرى المذكيات، وهي الخيل المسنة، أي أنها تغالب الجري غلاباً.

٦ — نفس المرجع (سخن) وهو السخون أيضاً.

الظهر، يده أقصر من رجله، خلته فأرة برية، فسألهم عن اسمه فقالوا: جربوع. فعلمت انه المراد من قول سادتنا النحاة في باب البدل: «خلق الله اليربوع يديه أقصر من رجله»^(١) إذ ما اليربوع في الواقع الا الكنغر بصورة مصغرة، ثم أمرع الصائد وشواه وتقاسمه وصحبه، وازدردوه سرّيعا كما يزدرد الحضري الفالودج. وعثر بدوي آخر على أثر قنفذ، فاقتفره وعاد بعد هنيهة بصيده، وكأنه آب بجوف الفرا^(٢)، فأضرم النار ورماه بها حياً، ولما تمكن من القبض على عنقه المنقبض حذر النار، ذجه وأكله ورفاقه بعد تمام نضجه بجشع غريب، ولقد باركت لهم ورفيقي بحصتيهما من القنفذ واليربوع.

ورأى عرب السرحان في رابعة النهار^(٣)، وقبل أن نصل الهزم، ضبعاً طاردوها بخيلهم، والفرس أسرع من الضبع، فأدركوها وأصموها رمياً بالرصاص، وذبحوها وأولوا تلك الليلة بها. ويزعمون ان لحمها علاج من الحمى. وللبدو غرام بأكل الجراد، ولعله حل أكله توسلاً لإبادته، على أن له في السنة المجدة نفعاً في البادية جزيلاً. ولهذا أجاب النبي (صلى الله عليه وسلم) من سألته عن الجراد فقال: «أكثر جنود الله لا آكله ولا أحله»^(٤). وفي رواية رزين عن جابر: دعا النبي (صلى الله عليه وسلم) على الجراد فقال: «اللهم أهلك الجراد، اقتل كبارَه وأهلك صغاره واقطع دابره وخذ بأفواهها عن معاشنا وأرزاقنا انك سميع الدعاء»^(٥) وعلى كل فاني أعلل أكله بما علل به الجهد البارع السيد أحمد زكي أكل الضفادع في رحلته «الدنيا في باريس» فأقول: ان أكله ليس بشر من أبي جلمبو والمفتقة وأم الخلول، والعلاجوم^(٦) ولو اعتاده المرسيليون لاتخذوا منه طعاماً نظير «البويايين».

ذكر الامام الجاحظ في المحاسن والاضداد قال: حدثنا بعض بني هاشم قال: قلت لأعرابي: من أين أقبلت؟ قال: من هذه البادية. قال: وأين تسكن منها؟ قال: مساقط الحمى حتى^(٧) ضرية، ما ان — لعمر الله — أريد بها بدلاً، ولا أبتغي عنها حولاً، حفها الفلوات، فلا يملولح مأوها، ولا تحمي تربتها، ليس فيها أذى، ولا قذى ولا وعك ولا موم (البرسام)، ونحن بأرغد عرش، وأوسع معيشة، وأسبغ نعمة. قلت: مم طعامكم؟ قال: بخ

١ — يريدون أن أصل الياء جيم جربوع، فأبدلوها منها الياء، وهي لهجة باقية في الخليج وبني شهر الى يومنا هذا. وهو من شواهد بدل الجزء من الكل أيضاً.

٢ — وهو حمار الوحش، ومنه المثل «كل الصيد في جوف الفرا».

٣ — نقول رابعة النهار ورابعته، سواء

٤ — انظر سنن أبي داود — كتاب الأطعمة ص ٣٤.

٥ — أخرجه الترمذي في كتاب الأطعمة ص ٢٣.

٦ — الضفدع الذكر.

٧ — في الأصل الخنئ خنئ، والصواب كسر الحاء وفتح الميم.

بح اهبيد (الحنظل) والضباب واليرابيع مع القناقد والحيات، وربما، والله، أكلنا القد واشتوينا الجلد، فلا نعلم أحداً أخصب منا عيشاً، فالحمد لله على ما رزق من السعة، وبسط من حسن الدعة!

(ميسوع) (١)

بعد أن رويت ركائبنا من قليب الجراوي^(٢)، امتطيناها وسارت بنا فوق الرمال وبين الشرق والشمال، وبعد نحو ساعتين رأينا عن بعد خيلاً، ظنه الراكب فارساً من «شمر» غازياً، وكان قد فارقنا من الراكب بدويان يقصدان ماء ميقوع، وقد تركناه على أيماننا، وكان عرب من بني سليمان نازلين عليه، وبعد ساعة عاد البدويان يخبان على راحلتيهما خوفاً من ذلك الراكب الشمري، وحينئذ أيقنا بالشر، فهربنا مياسرين (إلى اليسار)، وصرنا نتواري عن العدو بالهضاب، وما منا إلا من عبأ بتدقيته، كما عبأت مسدسي، وقد شددت للموت الحيازيم، وأنا أدعو الله ألا يظفر بي أظفار الأعداء وأن يكفيني مخاشي اللاؤاء، وأظن أن الله استجاب لي الدعاء، فأعشى عين الغازين عنا، ونجانا برحمته جميعاً. وميسوع لم يرد بهذا اللفظ في معجم البلدان^(٣) وإنما ورد موقع. قال: هو ماء بناحية البصرة قتل به أبو سعيد المثنى الخارجي العبدي. فإن كان مصحفاً عن موقع، وهو غير بعيد، عرفنا أن في جزيرة العرب ماء غير واحد باسم موقع، وهذا الماء على بعد مرحلتين من دومة الجندل، ونحو ساعتين من ماء الجراوي شرقاً.

(العبد)

وما زلنا نطوي البعيد، ونواصل السير بالسرى حتى لاح لنا من بعيد جبل شاهق في البعيداء قائم اللون، يقال له العبد،^(٤) بينه وبين الجوف نحو فرسخ، وحينئذ بلغناه ألفينا بجانيه عدة قُلب في وهدة يحدق بها رواب من الصقاح الصلصالي، ووجدنا الحنظل نابثاً في

١ - حمد الجاسر ١٢٩٧/٣، وتقع إلى الشمال من دومة الجندل بـ ٧٥ كيلاً في طرف وادي السرحان، وهو منهل للبادية...

وعليه وقعت وقعة بين بني صخر بقيادة الشيخ طراد بن زين وبين خلف الأذن من آل شعلان من الرولة من عنزة، فكانت الهزيمة على بني صخر. وانظر أبطال الصحراء ص ٢٥٧، ٢٥٨ ولم يذكره ياقوت، وذكر موقع، وليس به.

٢ - في الأصل الجراوي، تحريف.

٣ - معجم البلدان ٢٢٦/٥.

٤ - حمد الجاسر ٨٧٩/٣، ٨٨٠ وجمهرة اللغة والقاموس (عبد) ومعجم البلدان ٧٧/٤ وبيانيه جبلان يسميان «الثديين». وهو عبد الجوف، ويقع إلى الغرب منها، يرى بالعين.

هذه الوهدة، وبعد أن شربنا ركبنا وخبت بنا المطايا، سيما بعد أن شاهدت خضرة النخيل، وشعرت بأنها علي مقربة من الماء النير والعلف الوفير، والظل الظليل. وأما أنا فقد شعرت بما يشعر به ركب السفينة السادرة في تيه البحار إذا ظهرت لهم الجزيرة، واطمأن فؤادي بابتعادي عن اشراك الأتراك.

ولما دنونا من دومة الجندل وجدتها في غور من الأرض يحدق بها الهضاب والآكام، فعلمت سبب تسمية البدوها اليوم بالجوف، وشاهدت في مدخلها الغربي أنقاض سور كان بالصفاح مشيدا، وما زلنا نلج في نخيل الجوف ونشاهد بيوت الشرارات الشعرية حتى بلغنا البيوت الحجرية، فلم ننخ المطايا لوصولنا بعد الغروب في قصر الأمين، وأنحناها في مخيم طائفة من عقيل نجد، جاءت الى الجوف من الشام لا شراء جمال للحكومة التركية. وقد رحبوا — لعمر الحق — بنا ترحيبا حسنا، وأتونا قرب صلاة العشاء بالقرى، فطعمنا وغنا.

وفي الصباح أتانا رجل من جماعة الأمير نواف الشعلان يدعونا للضيافة في قصر الامارة، فلبينا الدعوة وأخذنا أولا الى داره، وأكرمنا بالتمر الطيب والسمن الشذي، وعلمنا منه ان الأمير ذهب الى بلدة يقال لها «سكاكة» وان له نائبا يقال له عامر، وبعد أن استرحنا في منزله قليلا، سار بنا الى قصر الامارة الذي كنا نسمع ونحن بالبادية من البدو، بأنه يحاكي بفخامته قصور الشام، أو أنه القصر الذي خلعت عليه جمالها الأيام. دخلنا بوابته، فشهدنا مدفعين من الطراز العتيق، يقال لأحدهما المنصور، غنمه الأمير نواف من ابن الرشيد حين اكتساحه الجوف منه، ثم صعدنا على درج مؤلف من نحو ثلاثين درجة، ودخلنا مجلس الأمير الخاص، فقابلنا نائبه عامر، وهو رجل طويل القامة، أسمر اللون، متقلد سيفاً مفضضاً، وبعد أن حيانا، ومن مجلسه ادنانا، أمر بطعام فحضر التمر، والسمن، والبيض المقلي الذي لم نذقه منذ مفارقتنا الشام، فأكلنا وقضينا من الطعام الوطر، وغسلنا والله الحمد يدينا بالصابون النابلسي المطيب. ثم شربنا القهوة البدوية، وسألنا عامر عن أمرنا ومقصدنا، فقلنا له: إنا من طلبة العلم الشريف وأهل الشام. وانما فررنا من جنديّة لا نطبقها لأننا من حملة الأقلام وأنصار السلام. فرحب بنا ووعدنا بمقدم الأمير نواف خيرا.

(الشرارات)

قبيلة كبيرة مبعثرة في بادية الشام، لم أجد أحداً من المؤرخين المتقدمين ذكرها بهذا الاسم، وأما المحدثون منهم فقد اختلفوا اختلاف تشريق وتغريب، فذهب الأمير شكيب

ارسلان في بحث «اكتناء عرب الشام» (١) الى أنهم من بني كلب، لأن نخوتهم بنو مكلب، ولأن التاريخ قد ذكر نزول كلب بأطراف البلقاء من الشام. وذهب صاحب الرحلة الحجازية (٢) الى أنهم فخذ من عبس التي كان لها في الجاهلية ذلك الجاه المنيع، وكانت الى القرن الثامن الهجري، قوية، فاعتدت على جاراتها، فنقم العرب عليها، وأوقعوا بها، فشئت شملها الى اليمن وغيره، ومن ثم ضعف أمرها، وهي التي انجبت مثل عنترة وعروة بن الورد، ويصدق عليهم في تشتهم قول العرب: في كل واد أثر من ثعلبه (٣). وعدهم المؤرخ البعثات نعوم شقير في تاريخ سينا من قبائل هتيم، وذكر أنهم كثيرا ما يأبون دفع «الخواوة» لحماستهم وقال: «ولا يبعد أن يكون هتيم من سكان جزيرة العرب الاصلين» ويريد بالاصلين العرب البائدة كعاد، وطسم، وشمود وجديس.

أقول والله أعلم بحقيقتهم: ان الشرارات ولا ريب من قبيلة مجيدة يدل على ذلك منهم اليوم ما امتازوا به من الكرم على فقرهم، فقد سمعت من كثير من القبائل التي تخالطهم بأن الشراري اذا ضافه ضيف ولم يجد ما يقويه به غير ناقته الوحيدة قد يذبحها اكراما لضييفه ولا يبالي. وعرف الشراري في البادية بأنه سريع النجدة، منيع الحمى، شجاع، يستقتل دون أن ينهب ناقته الغازون. كما أنه قد عرف في بداية الشام نجدة لسانه. وسرعة جوابه، وقوة شاعر بته البدوية، وأنه يضارع الصليبي بقوة دلالة، وكونه أهدي بطرق جزيرة العرب ومسالكة من القطا.

دومة الجندل (٥)

ويقال لها الجوف في أيامنا هذه، ثم يطلق الجوف على مجموع القرايا التي قاعدتها دومة

١ — وانظر تاريخ سينا لنعوم شقير ٦٦٤، ومعجم القبائل ٥٨٧/٢

٢ — ص ٥١

٣ — أي هم كثير. ومثله في كثرة قبيلة حرب، وهم من خولان اليمن: اذا ضيغت اصلك فحزب. أي فل انتك من حرب لانهم كثيرون.

٤ — ص ٦٦٧ ومعجم القبائل ٦٤٦/٢ — ٦٤٨.

٥ — مقالة نشرت في عدد يناير سنة ١٩١٨ ص ٢٢ — ٢٧.

الجنديل (١) ، كما تطلق تونس على القاعدة والعمالة التونسية. وكان العرب يطلقون على دومة وتوابعها كلمة القرىات. قال أبو عبيد الله السكوني: (٢) من وادي القرى الى تيماء أربع ليال، ومن تيماء الى القرىات ثلاث أو أربع. والقرىات: دومة، وسكاكة، والقارة. وقد نقلت دائرة المعارف البستانية ما كتب العرب عن دومة الجنديل وترجمت ما كتبه عن الجوف غير عالمة بأنه ودومة الجنديل شيء واحد. ولندكر بإيجاز ما ورد عن دومة الجنديل في مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع (٣) وهو مختصر معجم البلدان للحموي قال: دومة الجنديل بالضم ويفتح، وأنكر ابن دريد (٤) الفتح وعده من أغلاط المحدثين. وجاء في حديث الواقدي (٥): دوما الجنديل، قيل: هي من أعمال المدينة حصن على سبع مراحل من دمشق بينها وبين المدينة. قيل: هي في غائط (٦) من الأرض خمسة فراسخ، ومن قبل مغربه عين تشج، فتسقي ما به من النخل والزروع، وحصنها مارد، وسميت دومة الجنديل لأنها مبنية به، وهي قرب جبلي طيء، ودومة من القرىات من وادي القرى، والقرىات دومة وسكاكة وذو القارة، وعلى دومة سور يتحصن به، وفي داخل السور حصن منيع يقال له مارد، وهو حصن أكيدر بن عبد الملك، صالحه النبي صلى الله عليه وسلم وأقمنه وكان نصرانيا (٧).

وكل ما ورد في الوصف صحيح، فأنها في غائط (٦) أو جوف من الأرض، وبها عين تشج، (٨) ومبنية بالصفاح من الجنديل، وأكثر القرى مبنية باللبن، وشاهدنا أنقاض سورها العظيم، وحصنها المنيع الذي لا يزال البدو يلقبونه بمارد، وهو مشيد على رابية علوها نحو

١ — او دوما الجنديل عن الواقدي، نسبة الى دوما بن اسماعيل عليه السلام، واضيفت للجنديل لأن حصنها مبني به، وهو الصخر. وكانت مقرا للصنم «ود» وسداته لبني وبرة من كلب. انظر المعجم الجغرافي ٥٣٩/٢ — ٥٤٢ ومعجم ما استعجم (دومة).

٢ — معجم البلدان ٤٨٧/٢ — ٤٨٩.

٣ — من هذا المختصر نسخة في دار الكتب السلطانية بمصر لم يذكرها اسم المختصر ولا عرفته دار الكتب، وقد سألت عنه صديقي الباحث الفاضل السيد أحمد تيمور فقال لي: لقد عثرت على اسمه في رحلة الشيخ عبد الغني التابلسي، وهو عبد المؤمن الحبلي، فجزى الله الصديق عن العلم خيرا (من الأصل).

قلت: الكتاب اليوم مطبوع، وربما كان بحاجة الى ان يحقق وان يعاد طبعه.

٤ — جهرة اللغة ٣٠١/٢ وتابعه صاحب الروض المطارص ٣٩٠.

٥ — في الأصل الواقدي، تصحيف.

٦ — في الأصل غابط، تصحيف في الموضعين.

٧ — معجم البلدان ٤٨٧/٢ حيث الخبر وزيادة. وانظر حمد الجاسر ٥٣٧/٢ — ٥٣٩.

٨ — في الأصل «تنج» والتصويب عن معجم البلدان في الموضعين.

عشرين متراً، وعلوه نحو عشرين متراً، ويقال إن نصفه الأعلى متهدم، وأنقاضه لا تزال حول القصر، وسكان دومة اليوم من قبيلة السرحان وغيرها من قبائل بادية الشام ونجد.

قال أبو عبيد الله السكوني: دومة الجندل حصن وقرى بين الشام والمدينة قرب جبلي طيء كانت به بنو كنانة من كلب. وما ورد في معجم ما استعجم للبكري، طبع غوتنجن صفحة ٣٥٣ قوله: ويدل ذلك أن دومة متصلة بدور بني سليم قول الكميت:

منازلهم دور بني سليم دومة فالأباطح فالشفير

قال: وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم جيشاً إلى دومة، وأمر عليهم عبد الرحمن ابن عوف، وعمه بيده وقال: «أغد بسم الله فجاهد في سبيل الله، تقاتل من كفر بالله، وأكثر من ذكر الله عسى أن يفتح على يديك فإن فتح فتزوج بنت ملكهم» ففتحها وتزوج بنته تماضر بنت الأصبح، فهي أول كلبية تزوجها قرشي فولدت له أبا سلمة الفقيه، وهي أخت النعمان بن المنذر لأمه، وكان افتتاح دومة صلحا، وهي من بلاد الصلح التي أدت إلى الرسول (صلى الله عليه وسلم) الجزية، وكذلك أذرح وهجر، والبحران وأيلة.

قال ياقوت: وأهل كتب الفتوح (والحديث كذلك) مجمعون على أن خالد بن الوليد، رضي الله عنه غزا دومة أيام أبي بكر رضي الله عنه، عند كونه بالعراق في سنة ١٣، وقتل أكيدر، لأنه كان نقض وارتد، وعلى هذا لا يصح أن عمر رضي الله عنه أجلاه، وقد غزي وقتل في أيام أبي بكر. وقد روي أن أكيدر كان منزله أولا بدومة الحيرة، وهي كانت منازلهم، وكانوا يزورون أخوانهم من كلب، وأنه لمعهم وقد خرجوا للصيد، إذ رفعت لهم مدينة متهدمة لم يبق إلا حيطانها، وهي مبنية بالجندل، فأعادوا بناءها، وغرسوا فيها الزيتون وغيره، وسموها دومة الجندل، تفرقة بينها وبين دومة الحيرة، وكان أكيدر يتردد بينها وبين دومة الحيرة، فهذا يزيل الاختلاف. وأقول: وما يؤيد هذه الرواية ما سمعته في الجوف من نواف الامير بأن مستشرقاً نمسياً (١) بحث عن آثار الجوف فوجد حجراً منقوشاً عليه بلغة غير عربية، فلا يسعد أن تكون نبطية، كالكتابة التي وجدت في البتراء والرقم من وادي موسى (٢) وفي الحجر.

١ — لعن المصود هو الرحالة «الفنلندي» جورج أغسطس والآل، الذي زار شمال نجد سنة ١٢٦١ (١٨٤٥ م)

٢ — ليس الرقيم في وادي موسى، وإنما هو قرب سحاب من صواحي عتاق

واستفدنا من هذه الرواية فائدة أخرى، وهي غرس الزيتون فيها قديما، وهي اليوم عبارة عن روضة مغروسة بالنخيل، وبها منه نحو سبعين ألف نخلة، يضرب بجودة ثمرها المثل، ويزرع في تربتها الرملية الصلصالية الخنطة والشعير ما يكفي السكان، ويزرع الدوميون أو الجوفيون من الخضر الباذنجان والطماطم، وبها صنف من القثاء يخال المرء أنه منسوب الى العمالقة، لأن طول الواحدة يبلغ مترا وأكثر، وقطرها نحو عشرة سنتيمترات، وأرضها قابلة لزراعة سائر الخضر، ولغرس الأشجار المثمرة، وقد غرس الأمير نواف بستانا على طراز بساتين دمشق، فمما فيه التفاح واللوز والجوز والمشمش، ثم ذبلت أشجار البستان لجهل الفلاحين بأصول البستنة.

قال ياقوت: وقد ذهب بعض الرواة الى أن التحكيم بين علي ومعاوية كان بدومة الجندل، وأكثر الرواة على أنه كان بأذرح. وقد أكثر الشعراء من ذكر أذرح وأن التحكيم كان بها (١)، ولم يبلغني شيء من الشعر في دومة الا قول الأعور الشّتي، وإن كان الوزن يستقيم بأذرح وهو هذا: (٢)

رضينا بحكم الله في كل موطن	وعمر وعبد الله مختلفان
وليس بهادي أمة من ضلالة	بدومة شيخا فتنه عميان
بكت عين من يبكي ابن عفان بعدما	نفا ورق الفرقان كل مكان
ثوى تاركا للحق متبع الهوى	وأورث حزنا لاحقا بطمان
كلا الفتنين كان حيا وميتا	يكادان لولا القتل يشتهان
وقال أعشى بني ضرور من عنزة: (٣)	
أباح لنا ما بين بصرى ودومة	كتائب منا يلبسون السنورا
إذا هو سامانا من الناس، واحد	له الملك خلا ملكه وتفطرا

١ - وتقع جنوب البلقاء، على حرف البادية، ومن أشعارهم قول ذي الرمة يمدح بلال بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري:

أبوك تلافى الدين والناس بعدما تساءوا، وببيت الدين منقطع الكمر
فشد اصار الدين أيام أذرح ورد حروبا لقحن الى عقر
وكان الأصمعي يلحن كعب بن جعيل لقوله في عمرو بن العاص:

كأن ابا موسى عشية أذرح يطيف بلقمان الحكيم يواربه
وغير ذلك من الشعر. انظر معجم البلدان الأردنية والفلسطينية (أذرح) عن ياقوت ١/١٣٠.

٢ - معجم البلدان ٢/٤٨٨، ٤٨٩.

٣ - نفس المرجع والصفحة.

نفست مضر الحمراء عنا سيوفنا كما طرد الليل النهار فأدبرا
وفي كتاب الخوارج مر عبد الله بن أبي ليلى مع أبي موسى الأشعري بدومة الجندل
فقال: حدثني حبيبي أنه حكم في بني إسرائيل في هذا الموضع حكمان بالجور، وأنه يحكم في
أمتي في هذا المكان حكمان بالجور، قال: فما ذهبت إلا أيام حتى حكم هو وعمرو بن
العاص فيما حكما قال: فلقيته فقلت: يا أبا موسى قد حدثتني عن رسول الله (صلى الله عليه
وسلم) بما حدثتني فقال: الله المستعان.

أقول والآبار الواسعة لا تحصى في دومة كثرة، وعمق البئر من سطح الأرض الى سطح
الماء بضع قامات، وعمق الماء أيضا كذلك، وقطر فوهة البئر نحو خمسة أمتار أو أكثر، فالمياه
غزيرة جدا تحت الأرض، يظنها المستخيل بحرا، ولون صبنا على هذه الآبار وواقع الماء
لأجربنا في دومة نهر، فإن الماء ينزع اليوم بصنف من الدلاء الكبيرة يقال لها السواني،
وهي من اختراع العرب أسلافنا الذين برعوا في الفنون المائية البراعة كلها، ولكثرة ما تنزعه
هذه الدلاء في الساعة من الماء، اعتاد شعراؤنا المتقدمون والأدباء أن يشبهوا الدموع بها فقالوا:
دموع على المغاني كغروب السواني. وقد نصبوا على كل بئر عدة بكرات كبيرة لرفع
الغروب (١)، وكل غروب بحجم القربة يرفع ببكرة، والغرب أو الدلو مربوط بحبلين حبل من
اعلاه، وحبل من فم الدلو الذي يكون مرفوعا والدلو صاعدة، فاذا وصلت اعلى البئر ارتحنى
حبل القم، فنزل ما في الدلو من الماء. والقوة الرافعة في كل سانية في السواني هو البعير، يجبر
حبال بكرات السانية نازلا في أرض منحدره حتى تصب الغروب ماءها (٢) في الساقية ثم
يعود الى فوهة البئر، والدلاء تعود الى سطح الماء وهلم جرا. وهذه السواني لا تزال مستعملة
على شاطئ الفرات. وللماتحين (٣) بالسواني مطربات الأغاني.

ولتمر الجوف شهرة ذائعة، وهو ذو أصناف جمة لذيد جدا لم أذق، قبل أن رأيت الجوف في
حياتي، تمرألد منه، وأظن أن النابغة كان في دومة إذ وصف التمربقوله:

صغار السنوى مكنوزة ليس قشرها إذا طار قشر التمر عنها بطائر (٤)

١ - جمع غرب، وهو قربة كبيرة مفتوحة، تكون من جلد بعير أو ثور.

٢ - في الأصل «ماؤها» وهو جائز على البدلية من الغروب إذا كانت نائب فاعل.

٣ - الماتح هو الذي ينزع الدلو من البئر.

٤ - ديوان النابغة (ط الجزائر ١٩٧٦) ص ١٢٨ وظن التنوخي قريب من اليقين ان لم يكن صحيحا، ذلك ان النابغة قال
الأبيات في غزوة قام بها النعمان بن الحارث لبني حن من عذرة الذين التحم معهم الفاسنة وانتصروا على
النعمان. ومواطن هؤلاء وادي القرى وشمال الجزيرة العربية.

كانت هذه القرىات فيما مضى، وقاعدتها دومة، تابعة لامارة ابن الرشيد النجدية، فحاربه الشيخ نواف بن الشيخ نوري الشعلان، شيخ الرولة من عنزة سنة ١٣٢٦ هجرية، وكان يومئذ الشيخ نوري في سجن سامي باشا الفاروقي في دمشق، فكتب الى ابنه بتهديد الحكومة التركية: أن يكف عن مهاجمة الجوف، فلم يفعل نواف، ولم يرجع عن عزمه، ومكث نحو سنة يهاجم دومة حتى فتحها عنوة، وصار من ذلك اليوم يلقب بالأمرير. وقد دافع عن امارته دفاع الأبطال، واستتب فيها الأمن ونشر لواء العدل عليها. ويجلس كل يوم مقدار ساعة في مجلس عام يحضر فيه مئات من القرويين والبدو، ويتحاكم أمامه الخصوم فيحكم بينهم بالعرف البدوي وقد حضرت مجالسه مرارا، ودققت في أحكامه فوجدتها موافقة للعقل ومقنعة للوجدان، وكان يحيل من الأحكام للقاضي الشرعي ما يتعلق به من الأحوال الشخصية. وقد كتبت له بالقلم العريض: «وَإِذَا حَكَمْتَ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ» (١). فعلقها في مجلسه فوق رأسه.

والأمير نواف شديد التمسك بالدين، فلا يترك الصلوات الخمس، و يأمر قومه بها، ويؤدي صلاة الجمعة في مسجد دومة الجامع القديم عهده، ويقال إنه عمري بناء عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ولا يزال، كسائر المساجد في صدر الاسلام، مسقوفا بالجريد ومفروشا بالحصي.

وللأمير نواف ولع شديد بسماع العلم، فقد قرأت له شيئا كثيرا من التاريخ والحديث، وقضينا ليالي في قراءة ألف ليلة وليلة وغيرها من أخبار العرب وأشعارهم، وقرأت له مرة قصيدة عمرو بن كلثوم المعلقة، فكان يتمايل طربا لمعانيها، لا سيما ما يتعلق بالحماسة، ويلتفت الى حاشيته قائلا: «اسمعوا ايش تقول أجدادنا العرب».

وكنت أسأله عن كثير من الكلمات اللغوية فيجيبني بلا تردد عن معانيها، لأن البدو لا يزالون يستعملونها مثل رحي، وثفال ولهوة، وقرى، ومن قول ابن كلثوم:

متى ننقل الى قوم رحانا	يكونوا في اللقاء لنا طحينا
يكون ثقالها شرقي نجد	ولهوتها قضاة أجمعينا
نزلتم منزل الأضياف منا	فأعجلنا القرى أن تشتمونا
ألا لا يعلم الأقوام أنا	تضعضنا وأنا قد ونينا
ألا لا يجهلن أحد علينا	فنجهل فوق جهل الجاهلينا» (٢)

١ - سورة النساء الآية ٥٨.

٢ - شرح المعلقات السبع للزوزني ص ١٤٦، ١٤٧ مع اختلاف في ترتيب الأبيات.

ولقد كان يهزلروي كل بيت و يقول: إي بالله!

و يطبخ الأمير قهوته على نار الغضا، التي تضارع بحرارتها ومدة دوامها، فحم السنديان في ديارنا، وتفوقه بعدم دخانها ورائحتها، و يعطر قهوته بالعنبر يضعه في أسفل الفنجان. وللبدو قصائد طويلة في وصف القهوة (١) ومدحها، وهم يتقنون طبخها جد الاتقان بحيث تغني الرشفة عن رشقات من قهوتنا، أو بالحري من القهوة المدنية. ومن اهتمام الأمير بشؤون أمارته أن بعض بيوت من بدو عنزة، كانت نازلة علي العبد (٢)، فبيتهم ركب من شمر وغزاهم ليلا ونهب جمالا لهم، فاصل الصريخ الى الجوف في منتصف الليل حتى ركب الأمير وحاشيته على الرغم من الالحاح عليه بالاستراحة حفظا على نفسه، ولم يعد الا ثاني يوم، ولولا أنهم أضاعوا الأثر لفتكوا بالعدو، وأعادوا المنهوب، وهكذا كان لسان حاله لسان سلامة بن جندل القائل:

انا إذا ما أتانا صارخ فزع كان الصراخ له قرع الظنابيب (٣)

(في دومة الجندل)

وفي دومة الجندل من الصناعة حياكة العباءات المشهورة بالجوفية، وصناعة السيوف وأغمدتها المفضضة والمذهبة. ويأتي الى الجوف تجار من دمشق وبلدة قبيسة (٤) من العراق. وفي سكاكة نحو من عشرين تاجر اصلهم من النجف وغيرها، يبيعون للبدو التمن (الأرز) والأقمشة والتمور، ويشترون السمن، والاعنام، والحمير ليرسلوها الى العراق. وفي الجوف قاض لا يعرف سوى بعض المسائل الفقهية، وهو أعشى البصر (٥) لا يستفيد من الكتب الجمة الموروثة عن سلفه شيئا، فان الكتب موجودة في صندوق كبير، (٦) بعضها مخطوط وبعضها مطبوع في مصر أو الهند، وقد أكل منها الأرضة والغبار ما لم يأكل منها الليل

١ - يبدو أن العرب في كل مكان كانوا يفعلون ذلك، وقد سمعاهم يد صوب بن السبي والهموة في تهامة، وفي غات من الصحراء الكبرى.. حتى أحمد شوقي لم يفته ذلك. ولما نحفظه من أشعار بدو جنوب الجزيرة فيها:

دلة ما فيها سبع من الهليل مثل عجز حبيث نسمها

٢ - عبد الجوف، ويقع الى الغرب من دومة الجندل، ويشاهد منها رأي العين. وهناك عدة أمكنة تحمل هذا الاسم («العبد» حمد الجاسر ٣/٨٨١).

٣ - شرح المفضليات للطيب التبريزي ط دمشق سنة ١٣٩١هـ ٢/٥٨٨

٤ - أعتقد أن عائلة «الفيسي» من أهل القصيم، تنتمي الى هذه البلدة العراقية.

٥ - هذا الأسلوب غير مقبول. لأن العشا لا يكون الا في البصر، ولذا فهو حشو.

٦ - يذكرني هذا الخبر بما وقف عليه في الزاوية الاسلامية بغات جنوب غرب ليبيا، وقد نشرت المجلة الثقافية لجامعة الأردنية في عددها الثالث ما عرفناه تلك الخزنة ومخطوطاتها.

والنهار، واكثر تلك الكتب سلفي من مؤلفات قانع البدع والخرافات الامام ابن تيمية، وتلميذه ابن القيم، وقد كتبت بأسماء هذه الكتب القيمة جريدة ضاعت مني بضائع رحلتي المطولة.

وللأمير نواف ولد يقال له سلطان، جاوز العقد الأول من عمره، وهو في منتهى الذكاء، علمته شيئاً من تاريخ قومه العرب. وما كان لهم من مجد وحضارة، والى أية دركة انخطوا اليوم، وتدل الفراسة على أنه سيكون له في جزيرة العرب شأن كبير.

وهو يتعلم كسائر الفتيان الفروسية، ويتعود ركوب الخيل مسرعة وأعراء^(١). وما من عربي الا ويحسن الركوب على الخيل عارية بلا رُكْب (جمع ركاب) وكانت الشعوبية تعيب العرب بذلك، وأظن شعوبية هذا العصر قد رجعوا لرأي العرب، فان فن الفروسية الحديث قد جعل من وسائل الشقافة بالفروسية امتطاء الجياد أعراء، لما تؤثره في انماء العضلات الضامرة في الأفخاذ. ثم ان العرب لم تستعمل الركب الا في أيام الازارقة، وقد كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: «لا تخور قوى ما كان^(٢) صاحبها ينزوا أو ينزع» أي لا تهن قواه ما دام ينزوا في السرج من دون استعانة بركاب، وما دام ينزع في قوسه.

وثروة الجوفيين من النخيل، وهم يتعهدونه بالري والخدمة على الدوام، والنخل طويل الجذور جدا، وقد يستغني عن الماء مدة طويلة، وله جلد على تحمل غمره بالماء مدة شهرين، كما يحصل في البصرة. والأرض السطحية في سكاكة رملية، ولكن جذور النخل الطويلة تخترق الطبقة الرملية الى الطينية الصفراء، كالنخل السمانى في رشيد مصر، فان أرضه رملية بحتة، وقد راعني منظر نخيل الجوف البهيج عند وصولي فقلت هذين البيتين:

لعمري لقد زرت الديار وأهلها وطففت بها حتى دعيت بطواف
فلم أر مثل الجوف يزهب بنخله ولم أر فيها حاكما مثل نواف
لم أشعر ذات يوم الا وأخي الجلال الشهيد يبشرني قبيل الظهر بقدم بعض الاخوان، فأطلت من النافذة على ميدان قصر الامارة، واذا بجمال تناخ مجمععة فهرونا الى الميدان، فاذا نحن بالأمير عارف الشهابي، وعبد الغني العريسي، وتوفيق البساط، أحد ضباط الاحتياط، والشاعر البيروتي عمر حمد، فبعد المقابلة والتقبيل اخذناهم الى غرفتنا الخاصة، التي أعدها لنا الأمير نواف، وطفقوا يحدثوننا، رحمهم الله^(٣)، عما لقوه في هرههم من النصب

١ - جمع عارية، غير مرجحة.

٢ - بمعنى دام.

٣ - لأهم أعمدوا في ١٢١ ١٩١٥.

والشقاء والأهوال، وكذلك فعلنا نحن، بأن قص كلانا عليهم ما قاسى من المتاعب حتى نجنا من المعاطب.

وحدثني الأمير عارف أنهم استجاروا في بادئ أمرهم بالمغاوشة من الدروز فأجاروهم، وقد بثت الحكومة التركية عليهم العيون، وأخرجت لالقاء القبض عليهم الجنود، وكانوا ينتقلون برأي الدروز من محباً الى آخر.

ونشرت الحكومة في جبل حوران الاعلانات تنذرها الأهلين بأشد العقاب، يقع على من تجدهم في داره، ورغبتهم بالجائزة المالية ينالها من يطلع الحكومة على مقرهم. وقد قال لي الأمير الشهيد ان كثيراً من فقراء الدروز البائسين، كانوا عالمين بهم، ولم يخبر الحكومة احد بمقرهم، مع عوزه الشديد. وقد اضطروا ان يختبئوا مدة باللجا (١)، فاتفق أن فخري باشا حاصره بجنوده وأحرق به من كل جانب، ولو لم يخاطروا ليلاً باختراق نطاق الجنود لوقعوا في فخاخهم، وما وجدوا الى الفرار سبيلاً.

أخبرني الأمير نواف أنه لما اجتمع في شوال سنة ١٣٣٣ بجمال باشا وفخري باشا في القنيطرة، أخبره فخري باشا على حدة، أنه يريد أن يهاجم اللجا، بيد أنه يخشى أن يساعد الدروز عرب اللجا، ولهذا يريد فخري أن يعينه في حملته. قال لي نواف: ولكي أخلص من مكيدته، ولا أشارك تركيا في اذلال العرب، اشرت عليه بأن الأولى أن أنزل بعربي جنوبى حوران، حتى اذا رأيت الدروز هبطوا الى اللجا لمساعدة أعرابها حملت عليهم، فينشغلون بي، وأكفهم عما يريدون، وهذه الحيلة البدوية كفاني الله شره، واعتصمت بالبادية، وما زلت أجوها حتى بلغت الجوف.

نصحت ورفيقي المرحوم جلال الدين لاخواننا الفارين بأن لا يذكر أحد منهم للأمير نواف حقيقة حاله، وأنه محكوم عليه بالاعدام، وليفعل كما فعلنا قائلًا: انه جندي بسيط لم يحتمل مشاق الجندية وإهانتها، فلاذ بالفرار. وذلك لأن الأمير نوافاً يخشى جواسيس ابن الرشيد أن تخبر حكومة دمشق، فتتوتر العلاقات بينه وبينها، ولا يقوى وحده قبل قيام الشريف على محاربتها، وعربه الرولة مضطرون أن يمتاروا حبوهم من حوران، و يشتروا ألبستهم من دمشق، والا فإننا عرفنا روح نواف جد المعرفة، وأنه يبغض الأتراك من صميم فؤاده، لمساعدتهم عدوه اللدود ابن الرشيد بالسلاح والمال.

قابل الأمير نواف الاخوان بالترحاب، وبعد مدة بعث الي رسولا لمقابلته، قال لي

١ — الحرة التي تمتد الى الجنوب والشرق من جبل العرب.

علمت من صاحب العباءة المطرزة (يريد عبد الغني العريسي) أنه صاحب جريدة المفيد، ومحكوم عليه كسائر صحبه بالاعدام، فصلحتني تقضي على أن يسافروا من الجوف، وأن تعلم أن ليس ذلك بخلا مني، اذ في كل ليلة يأكل على مائدتي خلق من الضيوف كثير. ولما علمت إصرار الأمير، عدت الى الاخوان واطلعتهم على جليلة الأمر، فاستاءوا كثيرا، ولا سيما الأمير عارف رحمه الله، شاكين نفاذ دراهمهم، فرجعت الى الأمير نواف، وقلت إنهم قصدوا أبا سلطان (كنية نواف) من دمشق، فلا يليق أن يضاموا، وقد قلت دراهمهم، وكلت رواحلهم، والطريق مخيف، بعيد الشقة، وهم بلا دليل فكيف يسافرون؟

أجابني أنني أرضخ لهم بما يسد عوزهم من الدراهم، وأبدل لهم الراحلة الضعيفة، وأزودهم بالزاد الكافي وأرسل معهم الدليل الخريت (١)، فليكونوا مطمئنين. وهكذا رجعت وأخبرت الاخوان بما قاله الأمير، فهدأ روعهم وعزموا أن يرحلوا الى الحجاز، فقلت لهم: الأولى أن تسيروا الى العراق، وتلبسوا الألبسة الرثة، وأن تبذلوا جهدكم بالتفرق، لأن اجتماعكم يوجه أنظار البدو وأطماعهم اليكم، وقد رأينا بالتجربة أن الوحدة في البادية أنجح للقصد وأنجى. فقال عبد الغني: قد اتفقنا في دمشق والأمير فيصل على القيام اليه، ولذلك وجهتنا الحجاز، ومقصدا الأمير فيصل، أما الأمير عارف فكان يخالفه في بعض هذا الرأي.

للتترك في وسط جزيرة العرب مخفر بدوي عثماني، وهو للأمير سعود بن عبد العزيز الرشيد، صاحب حائل (قاعدة نجد)، الذي اتفقت عليه السنة البدو أنه يأتمر بأوامر أخواله السبهان، فأضاع قسما كبيرا من أمارته، وانقلبت عليه بعض قبائل شمر وشيوخها، كابن طوالة، فكنت أرى أن من مصلحة الجزيرة والعرب، أن يدمر هذا المخفر المضر، فأغریت الأمير نوافا كثيرا باكتساح حائل بنفسه، أو باتفاقه مع الأمير ابن السعود العنزي مثله.

واتفق مرة أن طلب مني نواف أن استفتح له بالقرآن، فأخذت المصحف وفتحته بعد قراءة الفاتحة فخرجت آية «فاصبر إن العاقبة للمتقين» (٢). فقرأتها له قائلا: اصبر يا نواف، فستفتح حائل، فالعاقبة للمتقين أمثالك. ونظمت بعدئذ قصيدة نونية ضمنتها جميع غزواته، وأشرت له فيها للاستفتاح ومطلعها:

غيري يميل لشرب بنت الحان ولضرب أوتار وعزف قيان

١ — العارف بالمسالك والطرق.

٢ — سورة هود الآية ٤٩ وفي الأصل «واصبر فان» صححناه.

أصبر فمقبسى المتقين جميلة قال الإله إليك بالقرآن
أيام تفتح حائلا وينيلك الر م من ملكا ثبات الأركان
فتذل قوم ابن الرشيد ورهطه وتدير دائرة على سبهان
وبعد مدة سافر الاخوان مع دليل شراري، ولم نسمع لهم خبرا الا بعد نحو شهر، اذ رجع
الدليل بكتاب بخط الأمير عارف رحمه الله شارحا ما لقوه من المصاعب، وأن شهابا شيخ
عرب الفقيه الذي أخذوا له كتاب وصية الأمير نواف، وعدهم بايصالهم الى المدينة بالسكة
الحديدية بحماية أحد عبيده، و يركبون القطار من محطة مدائن صالح القريبة من مخيم عرب
الفقيه.

ومن فر الى الجوف «مر يود» شيخ جباتا الحشب من قرى جبل الشيخ، وذلك أن أحد
الأسافل الذين أحسن إليهم، كتب الى الحكومة تقريرا بأنه يهرب القمح الى الانكليز كذبا
وهتانا. وقد أوعز نواف أيضا اليه بالسفر، فاقضى آثار الاخوان السابقين، وسار معه خاله
والمرحوم جلال الدين. ولقد بكيت لفرارهم بكاء مرا لم أبك في حياتي مثله، لأنني كنت
شاعرا بخطر سفرهم هذا. وقد خيرني الأمير نواف بين الإقامة لديه وبين السفر الى العراق.
فاخترت الأخير، وقبل سفري من سكاكة بلغني القاء القبض على عبد الغني العريسي
وصحبه في مدائن صالح، ورجوع الأخ جلال ورفيقه الى الجوف بخالة يرثى لها. بعد أن
علموا بالقاء القبض على اخوانهم المرحومين، وأرسلوا إلي خبراً بأنهم ذاهبون الى الأمير
نواف المتبدي. وقد رجعوا الى رأيي بالإعراق، وأن الملتقى البصرة إن شاء الله.
ثم نعت لنا جريدة المقطم، وأنا يومئذ في البصرة، المرحومين: الأمير عارف الشهابي
ورفقائه الثلاثة وانهم أعدموا في بيروت شنقا.

والمشنقة كما تقول عامة سورية «مرجوحة الأبطال» وقد ألقى القبض عليهم في مدائن
صالح كما ذكرناه رحمهم الله. وبلغني وأنا في مكة أن المرحوم جلال الدين، وأحمد مر يود،
وخاله، بعد أن اجتمعوا في البادية بالأمير نواف أشار عليهم بأن يسيروا معه الى أبيه النوري،
وعند وصولهم الى مضر به وجدوا فيه الأمير طاهرا الجزائري فارا من الحكومة.

وقال الراوي: وان هؤلاء المستجبرين ترجوا من النوري الشعلان. أو ان نوري أشار
عليهم بماله من الدالة على جمال باشا. أن يطلب لهم العفو عنه، فيرجعوا الى أوطانهم، وأنه
أبفاهم في قرية عذراء (عذره) (١)، ونزل الى دمشق. وفإن الباشا. فأقسم له مينا غموسا

١ - لم يذكرها أحد الجاسر، ولعلها في الحدود الأردنية أو السورية

وبالشرف العثماني العسكري أنه لا يسهم بسوء وأرسل عربية وثلة من رجال الدرك الى عذراء رجعوا منها بالفارين في العربية وقد أصدقوا بها حتى بلغوا دمشق، فوضعهم في مكان محفوظ، وبرجال يمينه مدة اقامة النوري في الفيحاء، وبعد سفره منها حكم الديوان العرفي على الأمير طاهر بالسجن في القلعة عشر سنين، وعلى المرحوم جلال الدين البخاري بالاعدام شنقا في بيروت، زعما أنه شوق البدو الى الثورة، وترك أحمد مر يود البريء كاخوانه لعدم ثبوت الدعوى عليه. لقد احترق، وذمة العرب، قلبي على صديقي ورفيقي الجلال الشهيد الذي كان في مطارح النوى والتعاسة يؤاسيني و يسليني ويتوجع لي.

فيا عين جودي بالبكاء على أخي الـ سوفاء جلال الدين لا تذخري وسعا
لقد كان يرجى في الشدائد نفعه وقد قل ان يجدي بها أحد نفعاً
وفي ذكي مخلص قد عهدته سريعا لداعي الكرمات متى يدعى
سقى الله قبراً قد رعى العهد ربه وحيا الحيا ذاك الجلال الذي انعى

سكاكة (١)

كتب لي الأمير نواف كتاب وصيته للسيد مهدي النجفي كبير التجار في سكاكة، وذلك ليرسلني مع القافلة الذاهبة لا شراء التمن من العراق، كما أوصى الأمير بي، جزي خيرا، حاكم سكاكة المقيم عليها، واسمه الغثيان، أحد افراد آل الشعلان، وهو شاب. ويوم السفر ودعت سمو الأمير، وسرنا صباحا وانا رديف الغثيان على ذلوله، وكان معنا بعض أعيان سكاكة، ولم نبلغ حمى سكاكة الا قبيل العصر، بعد أن جزنا بين قرية قارة، وكان قديما يقال لها ذو القارة (٢) أيضا، وبين قرية الطوير (٣) وكأنها تصغير طوير، لم يرد اسمها بين القريات التي ذكرها السكوني (٤).

وسكاكة (٥) بضم السين واقعة شمال الجوف، وهي بسيط من الأرض في جوف منخفض محاط، كدومة الجندل، وبالروابي والآكام، ولذلك كانت طيبة المناخ، عذبة، واسعة الطرق، كثيرة الحدائق النخيلية. وبعد أن انخنا الرواحل في حصن الامارة توافد أهل

١ - عدد ابريل سنة ١٩١٨ ص ٢٤٥ - ٢٤٩.

٢ - معجم البلدان ٢/٢٩٥ «احدى القريات التي منها دومة الجندل وسكاكة، وهي اقلهن عددا» وقال حمد الجاسر

٣/١٠٥٧ انها الى الجنوب من سكاكة بما يعادل ١١ كيلا

٣ - حمد الجاسر ٢/٨٣٨ «تعتبر البلدة الرابعة» في اقليم الجوف، وتقع جنوب بلدة سكاكة وبينها ستة اكيال.

٤ - ولا غيره من المتقدمين.

٥ - معجم البلدان ٣/٢٢٩.

البلدة للتسليم على شيخهم الجديد، ومن جملة المسلمين كان السيد مهدي، فعرفني به الغثيان، وأوصاه بي، وأعطيته رسالة الوصية، ثم انتقلت الى داره، وبقيت شهر ربيع الأول مكروما بضيافته، وكأني من آل بيته. وبه تعرفت بسائر اخواننا العرب من تجار البلدة الألى اكرموني — ببارك الله بهم — جدا. وعشرت لديهم على نسخة من ديوان شاعر قریش الشريف الرضي، فكنت اقرأ لهم المرقصات من قصائده العصماء، وقد ترغمت في رحلتي بجا، قصائد هذا الديوان النفيس.

ولهؤلاء التجار في سكاكة جنائن من النخيل، وبينهم تاجر من قبضة، وكان السكاكيون يصلون الجمعة في ميدان متسع من الأرض، لأن مسجدهم كان يرمم يومئذ، فكان الخطيب يخطبهم واقفا بلا منبر، وهو لا يحسن العربية، فيلحن كثيرا، وهو مثل خطيب دومة — كلاهما لا يذكر السلطان التركي في خطبته ولا يدعو له، ولا يعترف بخلافته، وهما يدعوان الله بأن يصلح الأحوال ويحسن المآل.

واختلف مرة قاضي سكاكة وقاضي الجوف في مسألة شرعية تتعلق بالفرائض، فاجتمعا في الجوف، وانتدبني الأمير نواف لأكون حكما بينهما. وأكثر عرب القرىات حنابلة يعظمون الشيخ محمد بن عبد الوهاب الحنبلي، جدا، فهم لذلك أقرب الى الفطرة وأبعد عن الخرافات. وفي سكاكة طائفة كبيرة من سكانها يقال لهم القرشا نسبة الى قریش، كما يقال، وهذا لا يبعد لأن قبيلة قریش تفرقت أيام الفتوح في الآفاق.

والسكاكيون أسلم أجساما، وأعظم آفاقا من الدوميين، فترى فيهم الوجوه المقمرة الصبيحة، والأبدان الضخمة الصحيحة، والبدييات الرعابيب بحسن غير محبوب (١). وبما أن سكاكة غير مسورة ولا حصينة كانت عرضة للغزاة والمهاجمين، فاتخذ كل سكاكي بيته حصنا حفر فيه بئر وملاءة بالمؤونة، والذخيرة، فحق عليه المثل الانكليزي القائل: «بيت الانكليزي قلعة» وبيوتهم مشيدة باللبن، مدعومة بشجر الأثل المتين، الوارد ذكره في شعر العرب كثيرا، وقد شاهدته لأول مرة في دومة الجندل وسكاكة، وارتفاع الشجرة بالغ نحو أربعة أمتار (٢)، وهي تحكي شجرة الطرفاء الا أن قطر جذعها يبلغ نحو عشرين سنتيمترا.

١ — يشير الى قول المتنبي:

حسن الحضارة محبوب بنظرية وفي البداوة حسن غير محبوب
ديوانه ص ٤٢٨ (شرح اليازجي).

٢ — وقد ترتفع اطول من ذلك، رأيناها في بيشة والصحراء الكبرى.

عودني السيد مهدي شرب القهوة العقلية صباحاً، قبل تناول طعام الفطور، وقد صرت ألتذ بها جداً حتى قلت في وصفها ذات صباح هذه الأبيات:

كل مرمز الشراب كربه غير بنت الدلال (١) والمحامس
قهوة توقظ السكرى ولا تسـ كريقظى كقهوة الجلاس
تلك بنت الدلال تحيي عقولا غير بنت الدنان تردي بكاس
فاتركوا الخمر إن تكونوا رجالا كي تعيشوا في الناس مثل الناس
وفي أوائل ربيع الآخر، عزمت مع الركب الصليبي على السفر، وقد قدم هؤلاء الصلبة بأباعرهم الى سكاكة أواخر ربيع الأول لا شراء التمر، ثم يعودون لمنازلهم في البادية، ومنها يذهبون الى العراق، لينقلوا أحمال التمن الى سكاكة والجوف، وكان كبير الركب يقال له بريكان، فأوصاه بي السيد مهدي الايصاء كله، وشارطه ان يوصلني الى الشافقية (٢) بأجرة ثلاث (٣) مجديات، وقد لبثت بين ظهرانهم، حتى بلغت الفرات، نحو شهر، لأنهم مكثوا في منازلهم مدة أسبوعين حتى تكامل الركب، واستعدت العير للإعراق، ولقد تفاءلت باسم بريكان خيراً، وقلت: أبرك طالع وأمين طائر، ان شاء الله.

زودني السيد مهدي بالتمن والتمر، وودعني وأقرباؤه الى ظاهر سكاكة ثم ركبت بعيري وسرنا مشرقين، وبعد فرسخ من المسافة، لاقينا السكاكيات يحتطبن من أشجار الغضا الكاسية الرمال والتلال، فعجبت جد العجب لنشاط حالات الحطب، وقوة بنات العرب، ولم نزل نواصل السير والسرى، ونغالب النصب والكرى، حتى بلغنا في المرحلة الثالثة مخيم الصلبة او الصليب حيث اهل العير نزول.

(الصلبة)

يلفظها البدو بسكون الصاد وفتح اللام والمعجمة، وقد رأيت للفاضل سليمان أفندي البستاني مقالة عن البدو مفيدة في المجلد الثاني عشر من المقتطف (٤)، قسم فيها البدو الى ثلاثة أقسام: البدو كالرولة، وشمرو. ونصف البدو وهم الذين «ينزلون على مجاري الأنهار

١ — الدلال في لغة البدو أباريق نحاس تغلى القهوة فيها وتضع في العراق والشام، والمحامس وزان مفتاح من حرس اللحم قلاه، يحاكي القلاة المتخذة من الحديد (من الاصل).

٢ — من أراضي العراق.

٣ — في الأصل ثلاثة وهو خطأ.

٤ — الجزء الثالث من السنة الثانية عشرة، الحلقة الأولى ص ١٤٤، ١٤٥.

الكبيرة، يعيشون في بيوتهم الشعرية أو أكواخهم المصنوعة من القصب وجريد النخل، والبردى، يزرعون ما جاورهم من الأرض، ويظلون فيها، حتى إذا اجذبت المنابت، أو طابت خواطرها منها هجروها الى منازل أخرى، وعادوها بعد حين. ومنهم قبائل المنتفق على الفرات، وبنو أسد قوم الأخطل، وبنو لام الذين ينتمي بعضهم الى الدروز على دجلة، وبنو تميم والمعدان على شط العرب، وبنو كعب على كارون في بلاد فارس». وذكر أن الصلبة هم بدو البدو، وأنهم أورو بيو الأصل من دم أفرنجي. قال: «ولا أقرب الى الظن من أنهم من بقايا الصليبيين الذين تشتتوا بعد أن مزقت شملهم دولة الأيوبيين والمماليك والتتر، فالظاهر أن طائفة منهم التجأت الى بادية الشام، وامتزجت بأهلها، وجنسها الزمان بجنسها وعلى ذلك أدلة منها:

أولاً: كثرة العيون الزرق فيهم بخلاف العرب.

ثانياً: امتلاء الوجه ووفرة الشعر فيه.

ثالثاً: إذا سألتهم عن أجدادهم قالوا الفرنك.

رابعاً: عدم انتمائهم الى مذهب مخصوص.

خامساً: ولئن كان الزمان فعل فيهم فعلاً قاطعاً فهم لا يزالون أقل سمرة من سواهم.

سادساً: اختلاف هيئة معيشتهم عن سائر قبائل البدو.

وقال: (١) ومن غريب ما شهدته فيهم مباينة بيّنة في منطقهم، وارتقاء كثير في لفظهم، وهو أشبه بلفظ أهالي جنوبي لبنان، ولهم تعبيرات لا يعرفها البدو ونعرفها في سورية ولبنان، فن اصطلاحهم في التحبب ان يقولوا «يا حزني» وفي التقرب ان يقولوا «يا عيني» وفي الاستنجداد «دخلك ويايبي وياخيي وكلها غير مستعملة بهذا المعنى على هذا الوضع عند عرب البادية» الى أن قال: «ولا يعتمدون على اقتناء الابل والحيل، بل عندهم الأتار ينقلون عليها بيوتهم اذا أرادوا الرحيل».

وحباً بخدمة العلم اذكر ما شاهدته وعلمته عن الصلبة، فقد أقمت بين ظهرانيهم في البادية شهراً كريماً (٢)، لم يلفت نظري كثرة العيون الزرق فيهم، ولا ووفرة الشعر، ومنهم ممثلي الوجه ونحيفه، وامتلاء الوجه كثير في عرب السرحان، وبنو صخر، والقرى البدوية كدومة الجندل وسكاكة، وعلمت انهم يختلفون في اجدادهم، فتارة يقولون: الفرنج، واخرى الانقر يز أي الانكليز. وسائر العرب بلقبونهم بذلك، وأما كونهم لا ينتمون لمذهب

١ - المرجع السابق ص ١٤٥.

٢ - أي كاملاً.

مخصوص، فأكثر قبائل البدو الأميين كذلك، فالصخري أو الرويلي مثلاً، لم يسمع أحدهما باسم الشافعي، أو الحنفي، ولا بمالك ولا ابن حنبل، ولو سألت بدوياً أو أحد الصلبة عن دينه لأجابك: الله ومحمد رسول الله، فبعض البدو يجهل الاتقان لأميته، ولا في دينه، فلا يحسن الصلاة ولا التيمم أو الوضوء. وأن حفظ شيئاً من سور القرآن القصيرة فيحفظه بغير ما أنزل؛ مصحفاً أو محرفاً، مع عدم مراعاة الترتيب في الآيات.

والوان الصلبة كألوان سائر البدو، وبينهم الأسمر والضارب بلونه إلى البياض، ولا يختلفون بيئة معيشتهم عن سائر قبائل البدو، لا في طعامهم وشرابهم، ولا في مخض الزقاق، وخبز الرقاق، ولم يرثوا من أجدادهم الأوروبيين ولا عادة واحدة، فانهم يحسبون ويتزوجون حسب عوائد البدو، ويطلقون ويعددون بين الزوجات. وأعرف أن بر يكان الصليبي، الذي كنت ضيفه، كانت له زوجتان ورأيتها. ولا امتياز للصلبة عن غيرهم من قبائل البادية، إلا بصيد المها والغزلان ببنادق طويلة من الطراز الأعتيق، واعتادوا، لوفرة جلود الغزلان لديهم، أن يخطوا من الجلود جلابيب «جلايبات» يلبسونها، فتصم حمارة القيظ وصبارة الشتاء، ويتخذون من جلود المها نعلاً متينة جداً، ابتعت منها نعلاً بر يال مجيدي. وقد علمت من البدو أن لكل قبيلة لهجة خاصة بها، وأن البدو يعرفون الصلبة بلهجتهم الفارقة، كما يعرفون الرويلي، والشمري كليهما بلهجته، ويميزون بها بين الصخري، والسرحاني والشراري، كما يميز الحضري بين الشامية والمصرية والمغربية.

وهم موزعون في كل البادية، وقيمون زرافات قليلة في أماكن مختلفة إلا أنهم كثيرون لم يحص عددهم بالتحقيق. وأما قول الأستاذ: «لا يعتمدون على اقتناء الإبل والخيول، بل عندهم الاتن ينقلون عليها بيوتهم إذا أرادوا الرحيل» فأظن أنه لا يريد بهذه الجملة سوى الصلبة النازلين في الشامية قرب الفرات، وإلا فإن الصلبة الذين يجتابون أجواز الفلا إلى دومة الجندل ونجد، يقتنون الإبل الجيدة، وينتفعون بها انتفاع سائر البدو. ولا أزال أذكر اسم بعيري الذي امتطيته من سكاكة إلى العراق، وهو جنيف الآتي ذكره، فانه بعير صليبي. وهم كما يقول الأستاذ: «حيث حلوا في مأمن من غزوات البدو لأنهم في صلح مع الجميع».

ومن عرف طبائع البدو لا يسلم بأن شرذمة من الصليبيين تلوذ ببادية الشام فراراً من فتك العرب الذائدين عن حياضهم، وهي غريبة عن البادية، جاهلة بمفاوزها، ومظالمها،

ولو فعلوا ذلك ل مات هؤلاء الصليبيون جوعا وعطشا ان سلموا من اعتداء البدو والايقاع بهم، لانهم يبعيدون عن البدو بلغتهم وعاداتهم ودينهم. ولو أظهروا الاسلام في البادية لأظهروه في مدن سورية الحضرية، وخلصوا من عنجهية البدوية وشظف العيش فيها. فيحتمل انهم طلقاء موالي الأيوبيين أو احدى الدول العربية، جمعوا بعد العتق اشتاتهم في بادية الشام وغيرها، وعاشوا عيشة القبائل الرحل؛ وقد كان لبني أمية وبني العباس من الموالي نلق كثير. ولا تزال في أيامنا هذه قبيلة كبيرة مشهورة بالجمال نازلة بين حماة وحلب، يقال لها «الموالي».

١ — أولعلمهم بقية احدى قبائل العرب البائدة كما سبق ان ذكر بخصوص الشرارات.

الفهارس

١ - الاعلام والقبائل والاقوام

- ا -

٢٥	بنو جازي	٢٨	آل سعود
٤٢	بنو سليم	٥١	آل الشعلان
٢٨	بنو سليمان	٤٢	أبو بكر
٢٩، ١٧، ١٥	بنو صخر	٣٥	أبوذر
٢٥	بنو عطية	٣٨	أبو سعيد المثنى الخارجي العبدي
٥٤	بنو كعب	٤٢	أبو سلمة الفقيه
٤٢، ٤٠	بنو كلب	٣٢	أبو صاعد
٤٢، ٣٥	بنو كنانة	٤٢، ٤١	أبو عبدالله السكوني
٥٤	بنو لام	٤٤	أبو موسى الأشعري
٣٧	بنو هاشم	٣١	أبو الندى
١٩	بنو هلال	٣٦	أبو نعام
٢٤	بيت الجزائري	٣٧	أحمد زكي
٢٤	بيت العظم	٥١، ١٨	أحمد مريود

- ت -

٥٤	القطر	٣٥	أبن الاعرابي
٤٩، ١٥	الترك	٤٣	الاعشى بن ضور
٣٦	الترمذي	٤٣	الاعور الشني
٤٢	تماضر بنت الاصيح	٤٢، ٤١	أكيدر بن عبد الملك
٥٤	تميم	١٨	الامويون
٣٢، ٢٨، ٢٥	التوانة	٥٤، ٥٠	الانجليز (الانقريز)
٤٧، ١٨	توفيق البساط	٥٦	الاوروبيون
٢٩	التورانيون	٥٦، ٥٤	الايبويون
٤٧	ابن تيمية		

- ب -

- ث -

١٧	ابن بالي	١٧	ابن بالي
٢٥	البتنوني	٢٥	البتنوني
٢٥	البدول	٢٥	البدول
٥٢، ٣٤	بريكان الصليبي	٢٥	البطحة
٢٤	بنو اسد	٢٤	بنو اسد

- ج -

الجاحظ	٢٧، ٢١
جديس	٤٠
جذام	١٧
جروتربل	٢٧
جلال الدين البخاري	٢٤، ٢٣، ١٥
	٥١، ٥٠، ٤٨
جمال باشا	٥٠
الجوازي (بنو جازي)	٢٩، ٢٥

- ر -

ابن رافع (الشيخ)	١٧
رزين (المحدث)	٣٧
ابن الرشيد	٤٨، ٤٥، ٣٩
الرولة (قبيلة)	٥٥، ٥٣، ٤٥، ٢٨

- س -

سامي باشا الفاروقي	٤٥
السبهان	٤٩
السرخان	٤٢، ٣٧، ٢٩
سعود بن عبدالعزيز الرشيد	٤٩
ابن السعود العنزي (الملك عبدالعزيز)	٤٩
سلامة بن جندل	٤٦
سلطان بن نواف	٤٧
سليمان البستاني	٥٣

- ح -

حاتم (الطائي)	٣٦
حديثه الخريشة	١٥
الحضرمي (ابن خلدون)	١٦
حسان بن ثابت	١٥
الحمداني	١٧
الحموي (ياقوت)	٤١
الحنابلة	٥٢، ٢٨
ابن حنبل	٥٥
الحويطات	٢٩، ٢٥، ٢٣

- ش -

الشافعي	٥٥
شاهر الخريشة	٣٥، ١٥
الشراارات	٤٠، ٣٩، ٣٠
الشراكسة	١٦
الشريف (حسين بن علي)	٤٨
الشريف الرضي	٥٢
الشعلان	٢٩
شكيب ارسلان	٤٠، ٣٩
شمر (قبيلة)	٥٥، ٥٣، ٢٨، ٢٨
شهاب (شيخ)	٥٠

- خ -

خالد بن الوليد	٤٢
خالد بن يزيد	١٩
الخرشان	٢٩، ١٦، ١٥
ابن خلدون	٣٤، ١٦
خنيفس (الشيخ)	٢٣، ١٧
الخوارج	٤٤، ٣٦

- د -

الدبور (قبيلة)	٢٥
الدروز	٥٤، ٤٨
دوسو (الرحالة)	١٩
ابن دريد	٤١

- ص -

الصلبة	٥٥، ٥٤، ٥٣
الصلبيين	٥٦، ٥٤

- ط -

طاهر الجزائري	٥١، ٥٠
الطرابين (القرابين)	٢٥
طسم	٤٠
ابن طوالة	٤٩
طيء	٣٤

- ع -

عاد	٤٠
عارف الشهابي	٥٠، ٤٨، ٤٧، ١٨
عامر (نائب نواف الشعلان)	٣٩
عبد الحميد (السلطان)	١٦
عبد الرحمن عوف	٤٢
عبد الغني العريسي	٥٠، ٤٩، ٤٧، ١٨
عبد الله بن ابي ليلى	٤٤
عبد الله بن مصعب	٣٥
عبد الله نديم	٢٤
عبس (قبيلة)	٤٠
عبطان بن جازي	٢٩، ٢٥
عثمان (ض)	١٩
عدي بن الرقاع	٢١
عرب السرحان	٥٤، ١٧
عرب الفقير	٥٠
عروة بن الورد	٤٠
ابن عساكر	١٩
عقيل نجد	٣٩
علي بن ابي طالب	٤٣
العمالقة	٤٣
عمران	٢٥
عمر بن الخطاب	٤٧، ٤٥، ٤٢، ٢٣
عمر حمد	٤٧، ١٨
عمرو بن العاص	٤٤
عمرو بن كلثوم	٤٥
عناد بن عودة ابي تائه	٢٥
عنبرة	٤٠
عنزة	٤٦، ٤٥
عودة ابي تائه	٢٩، ٢٥، ٢٤، ٢٣

- غ -

الغثيان (شيخ)	٥٢، ٥١
---------------	--------

- ف -

الفائز (من بني صخر)	٢٩، ١٥
فارس الشعلان	٢٥
فخري باشا	٤٨
الفرنك (الفرنجة)	٥٤
فواز (شيخ الفائز)	١٦
فيصل (بن الحسين)	٤٩

- ق -

القرشا	٥٢
قريش	٥٢
القلقشندي	١٧
ابن القيم	٤٦
القين بن جسر	٣٤

- ك -

الكميت (الشاعر)	٤٢
-----------------	----

- م -

مجنون ليلى	٣٠
محمد بن دحيلان	٢٦
محمد بن عبد الوهاب	٥٢، ٢٨
المرسيليون	٣٧
مريود (احمد)	٥٠
معاوية (ال خليفة)	٤٢، ٣٥، ١٩
المعدان (قبيلة)	٥٤
المغاوشة	٤٨
المقدام معد يكرب	٣٦
المعاليك	٥٤
المنتفق (قبائل)	٥٤
مهدي النجفي	٥٣، ٥٢، ٥١
الموالي (قوم)	٥٦
مونتسكيو العرب (ابن خلدون)	١٦

- ن -

النابة (الذبياني)	٤٤
نعوم شقير	٤٠
النعمان بن المنذر	٤٢
نواف الشعلان	٤٥، ٤٢، ٣٩، ١٩
.....	٥٠، ٤٩، ٤٨
نوري الشعلان	٥٠

- ه -

هتيم	٤٠
هند	٣٠

- و -

الواقدي	٤١
الوليد بن يزيد	١٨
الوهابيون	٢٩

- ي -

ياقوت (الحموي)	٤٣، ٤٢، ٤١، ٣٤، ٣٣
يزيد بن عبد الملك	١٨

* * * * *

البلدان والاماكن

- ا -

الابلق الفرد	١٩
اشرة	٢٤
الادعم	١٨
اذرح	٤٣، ٤٢
الاردن	١٩
الازرق	١٩، ١٨
الاغدف	١٨
اويسط	٣١
ايلة	٤٢

- ب -

بادية الشام	٥٦، ٥٤، ٤٢، ٣٩، ٢٨، ٢٦
البتراء	٤٢
البحران	٤٢
بصري	٤٣
البصرة	٥٠، ٤٧، ٣٨
بلاد فارس	٥٤
البلقاء	٤٠، ١٩، ١٦، ١٥
بيروت	٥١، ٥٠

- ت -

تركية	٤٨
تدمر	١٩
تونس	٤١
تيماء	٤١

- ج -

الجابية	١٩
جباتا الخشب	٥٠، ١٨
جبل حوران	٤٨، ١٥
جبل الشيخ (الثلج)	٥٠، ١٥
الجبيلان (اجأ وسلمى)	٤١
جزيرة العرب	٣٨، ٣١، ٢٨، ١٦
.....	٤٩، ٤٧، ٤٠
الجوف	٣٣، ٣٠، ٢٤، ١٩، ١٧
.....	٤٩، ٤٥، ٤٢، ٤١، ٤٠، ٣٩، ٣٨، ٣٦، ٣٥
.....	٥١، ٥٠
الجولان	٢٤

- ح -

حائل	٤٩
الحجاز	٤٩، ١٩
الحجر	٤٢
حرمون (جبل الشيخ)	١٨
حلب	٥٦، ٧
حمى ضرية	٣٧
الحماد	٣٣
حماة	٥٦
حوران	٤٨، ٣٤، ١٦، ١٥
الحيرة	٤٢

- د -

٥٤	دجلة
٤٦، ٤٥، ٤١، ٢١، ١٥	دمشق
٥١، ٥٠، ٤٨	دوما، دومة الجندل
٣٠، ١٩، ١٧	
٣٢، ٣٥، ٢٨، ٣٩، ٤٠، ٤١، ٤٢، ٤٣، ٥١	
٥٥، ٥٤	
٤٢	دومة الحيرة

- ص -

٥٣	الصليب
١٩	الصنبرة

- ط -

٥١	الطوير
----	--------

- ع -

٤٦، ٣٨	العبد
٢٤، ١٥	عجلون
٥٠	عذراء (عدرة)
٥٥، ٥١، ٥٠، ٤٩، ٤٦، ٤٢	العراق
٢٥	العقبة
٢٣	العقيلة
٢٨	عمان
٣١	العيسوية
١٩	عين الزرقاء

- ذ -

١٩	ذيل البادية
١٨	الرحبة
٤٧	رشيد (مصر)
٤٢	الرقيم

- غ -

٢٥	غزة
١٧	غور بيسان

- ز -

١٥، ٧	الزرقاء
١٩، ١٨	الزيزاء

- ف -

١٨	الفدين
٥٥، ٥٤، ٥٣	الفرات
٥١	الفيحاء (دمشق)

- س -

٥٤، ٥٣، ٥١، ٥٠، ٤١، ١٩، ١٧	سكاكة
٢٨	سواد العراق
٥٦، ٥٤، ٥٠	سورية

- ق -

٥١، ٤١	القارة (ذو...)
٤٦	قببسة
٤٥، ٤١	القریات
٣٠، ٢٤، ٢٣، ١٥	قریات الملح
١٩	القسطل
١٨	قصر الابيض
١٩	قصر تبع
٢٨	القصيم
٢٣	قلمون

- ش -

٢٤، ١٧، ١٥	الشام (بلاد...)
٤٤، ٣٩، ٣٦، ٣٤، ٣٣، ٣٠، ٢٥	
٤٤	
٥٥	الشامية
٥٤	شط العرب
٥٣	الشفافية
١٥	الشهباء

- و -

٣٠، ١٧، ١٥	وادي السرحان
٤٠	وادي القرى
٤٢	وادي موسى
٣١	واسط

- ك -

٥٤	كارون
٢٤، ٢٣	كاف
١٧	الكرك

- ل -

- ي -

٥٤	لبنان (جبل)
٤٨	اللجا
٤٠، ٢٨	اليمن



- م -

الفاظ الحضارة

١٥	مؤاب
٤١	مارد
٢١، ٢٦	المخيف
٥٣	مخيم الصلبة
٥٠	مخيم عرب الفقير
٥٠	مدائن صالح
١٦	مدرسة العشائر
٥٠، ٤١	المدينة (المنورة)
٤٧، ٤٦	مصر
٢٥	معان
١٩	المغرب
٥٠	مكة المكرمة
٢٤	منوة
٢٣	الميسري
٢٨	ميقوع
١٦	اهل الوبر والمدن
١٨	البداءة
٥٣، ٢٨، ١٦	البدو
٥٤	بدر البدو
١٩، ١٧	التبدي
٢٣، ١٧	التشريق
٢٦	التضامن البدوي
٢٨	الثورة الدينية
١٦	الثورة القومية
٢٥، ٢٩	الجاهلية
٢١	الحدو
٤٦	الحياكة
٤٠	الخواوة
٥٥	الخوة
٢٨	الدين
٣١	الرعي (مراعي البادية)
٤٤	السواني
٤٧	الشعوبية
٤٦	الصناعة
٣٤	طعام البادية
٢١	العيد (يوم)
٤٧	الفروسية
٢٩، ٢٨، ١٦، ١٥	القومية
٢١	المتح (اغانى)
٢٩	نخوة العرب
٥٣	نصف البدو

- ن -

٢٣	النبت
٥٥، ٤٩، ٤٥، ٤٢، ٣٩، ٣٣، ٢٨	نجد
١٨	النجران
٤٦	النجد

- ه -

٤٢	هجر
٢٧، ٢١، ٢٠	الهزيم
٤٦	الهند

ثبت المحتويات

الموضوع	الصفحة
تقديم	٨٠٧
عز الدين التنوفي في سطور	١٠٠٩
هذه الرحلة	١٢٠١١
في بادية الشام	١٦٠١٥
بنو صخر	٢٠٠١٧
الهزيم	٢٤٠٢٠
قريات الملح	٢٥٠٢٤
الحويطات	٢٦٠٢٥
التضامن البدوي	٢٧٠٢٦
الدين في البادية	٢٩٠٢٨
نخوة العرب	٣٠٠٢٩
وادي السرحان	٣٠
اويسط	٣١
مراعي البادية	٣١
الميسري	٣٣
الجرابي	٣٤٠٣٣
طعام البادية	٣٨٠٣٤
ميقوع	٣٨
العبد	٣٩٠٣٨
الشرارات	٤٠٠٣٩
في دومة الجندل	٤٦-٤٠
سكاكة	٥٣٠٥١
الصلبة	٥٦٠٥٣
الفهارس	٥٧ وما بعدها

رقم الايداع لدى مديرية المكتبات والوقائق الوطنية
١٩٨٥/١/١٢

جميع النسخ موقعة

يطلب من

المحقق عمان ص. ب ٦٣٠٢٣٤

ومكتبة الكتاني باريد

مطابع دار الشعب